د. مصطفى سيف

"ضوء أسود"

كيان كورب للنشر والتوزيع

الكتاب:

ضوء أسود

المؤلفان:

د. مصطفى سيف

الغلاف:

محمد محمود

الإخراج الفني:

حسام سليمان

التدقيق اللغوي:

محمد عبد الغفار

* * *

إدارة التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

* * *

رقم الإيداع:

©جميع الحقوق محفوظة.. وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع -دون موافقة كتابية- يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الترقيم الدولي:

المهندسين- شارع السودان- تقاطع مصدق- الدور الرابع- مكتب

هاتف:

البريد الإلكتروني: mail@dar-kiaan.com الموقع الرسمي:

د. مصطفى سيف

"ضوء أسود"

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

مقدمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب).. منذ ما يزيد على أربع سنوات.. قد أطلقت مشروعها (النشر للجميع.. ولمن يستحق) الذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها.. التي أصبح البعض منها كُتابًا محترفين بعد ذلك.. أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة.. لمعوا من خلالها.

ومع ازدياد كمِّ الأعمال التي يبدعها الشباب –خاصة بعد ثورة□□ يناير العظيمة– وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر.. أصبحت سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة.. خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات.. وإحجام كثير من دور النشر عن ممارسة نشاطها بتوسع.. وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري.. كذلك صارت عملية النشر محفوفة

بالمخاطر.. التي تخيف طرفيها –الناشر والقارئ– على حدٍّ سواء.. وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت –بشدة– اقتصاديا.. ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال.. فكرنا في حل بديل.. هو "النشر لمن يستحق".. وتطورت الفكرة كثيرًا.. إيمانًا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية.. وحرصًا منها على استمرارها في دورها.. وإيمانًا منها –كما عهدتموها– بالشباب الموهوب.

لذا فقد قررت الدار إحياء مشروعها "النشر لمن يستحق" لفترة محدودة هذا العام.. وعلى مراحل.. وبشكل استثنائي.. لعل ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلك مجموعة نتائج.. على رأسها:

– توفير الفرصة للراغبين في النشر أن ينشروا أعمالهم.. وأيضًا عبر دار نشر لها اسمها.. ولله الحمد.. مع كبار الكتاب.

– تحقيق الأمان الاقتصادي للكاتب؛ حيث يضمن عودة ما دفعه بعد عام واحد.. مع هامش ربح خفيف.. إضافة إلى الغرض الأسمى.. وهو أن يرى أعماله منشورة.

– تحقيق المصداقية والوضوح بين الناشر والكاتب.. عبر شكل وبنود العقد الذي يعتمد على حماية الملكية الفكرية.. كما هي عادة عقود "دار ليلى".

– توفير عناوين جديدة ذات قيمة للسوق المصرية.. الأمر الذي يخدم العملية الثقافية.

ندعو المولى –عز وجل– أن يكلل مجهوداتنا بالنجاح.. وأن ينال مشروعنا رضاكم.. وكلنا ثقة أن كثيرًا من الأسماء التي تنشر من خلال هذا المشروع ستصبح –مثل سابقيها– بإذن الله من اللامعين في مجالات ثقافية عدَّة.

الناشر

قررت يومًا أن أكتب مذكراتى.. ففتحت قوسًا.. ثم لم أجد فى حياتى شيئًا ذا قيمة أكتبه.. فأغلقت القوس.. فكانت حياتى فراغًا فيما بين قوسين..

ضوء أسود

لماذا تراقب الطائر الأصفر وهو يلتهم الزيت بتؤدة مخلفاً ذلك الضوء السرابي يعم المكان؟

هل أنت سعيد بذلك؟

لماذا لا تطفئ ذلك السراج؟ هل تخاف الظلام؟ لماذا تخشاه؟

لماذا لا تدع داخلك يضيء لك الطريق؟

هل تخاف من خروج الكيان الشيطاني الملائكي من داخلك فيبدأ الصراع صليل سيوف قاتلة ورماح مسمومة وأنت بينهما عاجز عن وقف القتال.. أم تخشى أن تمرر أناملك على خصلاتها الحريرية وتنظر في عينيها اللتين تعيدان البريق لما حولك؟

هل تخشى أن تختفي بعد أن تصعد بك بين طبقات السماء فتسقطك؟

لماذا تخشى الظلام؟

هل تخشى تلك المقصلة التي تقام كل ليلة على شرف

روحك؟

هل تخشى أن تكتشف أنها روح جوفاء وكأي شيء أجوف جعجعته صاخبة بينما ما بداخله هواء؟

الآن فهمت لماذا تخاف المرايا.. إنك تخاف ألا تجد صورتك بها وأن تجد بدلاً منك مجرد فراغ..

حسنًا أنت تخاف الظلام لأنك لا تعلم له سببًا.. هل هو حقًّا ظلمة أم أن هناك ضوءًا أسود تشعه روحك فيملأ المكان؟

فليعم الديباج الأصفر من السراج لتتدثر به حقيقتك.. ولتلعب الغميضة مع روحك في ظل وجود السراج ومهما بحثت عنها لن تجدها..

ربما أنت بلا روح..

دع السراج مضيئًا ونَم.. لكن لا تسأل أبدًا لماذا هجرت الأحلام منامي..

ما وراء البحر

ملك أم كتابة؟

– ملك..

راقبته وهو يلقي العملة المعدنية لتتقلب مع الرياح بين الخيارين ملك وكتابة.. ولم أكن أعلم أن تلك العملة ستحمل معها حياتي لمنعطف لم أتخيله..

– كتابة..

لقد خسرت يا صديقي إذًا ستذهب معي..

– إنه قصر مهجور مخيف..

– لقد قبلت الاقتراع ولقد خسرت.. عليك تقبل النتيجة بصدر رحب..

– حتى لو كانت فيها ضياعنا؟

– حتى لو كانت هي الضياع ذاته..

– حسنًا..

متماسكي الأيدي منعقدي العزيمة يشوبنا بعض الخوف..

ذهبنا لزيارة القصر المهجور المترامي على أطراف المدينة..

كتلميذين تعودا على القفز من على أسوار المدرسة قفزنا من على سور القصر لندخل القصر ونقترب.. لكننا لم نلبث أن توقفنا مرتاعين أمام مشهد غريب!

رجل يرتدي طربوشًا جالسًا على منضدة بالحديقة!!

تأملنا أكثر.. حتى تلك البدلة التي يرتديها قد ولى عليها الزمن! وحمالات البنطال العجيبة التي تظهر منها أصبحت مجرد تراث!!

همست لصديقي: هل هناك أحد ما زال يرتدي طربوشًا؟!

أشار إليَّ بالصمت وأن نراقب فقط..

رأينا سيدة قادمة من بعيد ملابسها تتميز بالاحتشام والرقي إلا أنها تبدو غريبة المظهر..

لقد اندثرت مثل تلك الثياب منذ زمن طويل!!

تحمل بيديها صينية عليها فنجان للشاي وكوب ماء..

– تفضل الشاي يا عبد العزيز أفندي..

– هل جودت بيه سيتأخر؟

– كلا.. فقط احتسِ الشاي وستجده قادمًا..

ابتعدت السيدة وبقي عبد العزيز أفندي وحيدًا يرتشف الشاي ونحن نراقبه من أطراف الحديقة..

صوت الرشفات المتتابعة هو ما يكسر حاجز الصمت.. لكننا نشعر بعيون أخرى غيرنا تراقبه وهو يحتسي الشاي..

لم يقطع حاجز الصمت عند انتهائه من الشاي إلا صوت ارتطامه بالأرض!

حدقنا فيه برعب وارتياع وهو يتلوى.. رفض صديقي أن نتحرك لنرى ما به..

نظرات هلع تبادلتها مع صديقي.. الآن نشاهد رجلاً يحتضر!

هل كان من الحكمة أن نأتي لذلك القصر الملعون؟

راقبناه وهو يأخذ أنفاسه المتلاحقة وشاهدنا روحه وهي تغادر جسده وترتفع إلى السماء..

لم يقطع ذلك الرعب الذي كنا فيه غير سماع صوت أقدام آتية من بعيد.. إنها المرأة نفسها التي قدمت الشاي ومعها رجل

حاد الملامح..

– قد نال ما يستحقه.. كيف ظن ذلك المأفون أنني سأدعه يقتنص مني قصري؟!

نظرت إليه المرأة نظرة باردة فأكمل هو:

– نعم أفهم نظرتك جيدًا.. نعم لقد رهنت القصر لديه حين خسرت بالبورصة أغلب أموالي.. لم أستطع أن أذهب لأصدقائي لأستعير منهم المال حتى لا يشمتوا بي وحتى أظل أنا جودت بيه أفضلهم على الإطلاق..

ذهبت لعبد العزيز أفندي واقترضت منه بعض الأموال ورهنت لديه القصر.. أتفق معكِ في ذلك كله.. لكن كيف يظن أنني سأدعه يسرق مني قصري الذي أسسته كما أريد وشيدته بعرقي وأعرف أسراره جيدًا.. يحوي ذكرياتي وأحلامي؟ إنه قصري.. هل أدع غيري يرتع فيه؟

أخرج أوراقًا من جيب عبد العزيز أفندي وجر الجثة إلى أطراف الحديقة ثم حفر قبرًا وضع فيه الجثمان ثم أهال التراب على أحلام عبد العزيز أفندي في أن يصبح يومًا سيد القصر ومالكه..

دخل جودت بيه القصر ومعه أوراق الرهنية ليتركنا في الحديقة نحدق في الفراغ نحاول فهم ما جرى وأنفاسنا تتلاحق من شدة ما رأينا من الخوف والرعب!!

كما نحن كنا ثابتين كتمثالين لا يقويان على الحركة يصعقهما المشهد فيصيبهما بالجمود.. إلا أن صديقي استطاع أن يستجمع شجاعته وينطلق مسرعًا كأنه عداء أوليمبي هربًا من ذلك القصر وأنا أتابع الركض خلفه:

– هل ما شاهدناه الآن حقيقي؟!

هل بالفعل كنا شاهدين على جريمة قتل؟!

لم أستطع أن أجيبه.. فما زلت تحت تأثير الاندهاش.. الرعب يعقد لساني ولا أعرف ماذا يمكن أن يقال الآن..

– هل نبلغ الشرطة؟!

– هل أنت مجنون تبلغ عن جريمة حدثت منذ حوالي مائة عام؟

ألم ترَ ملابسهم؟ أعتقد أن ما رأيناه الآن مشهد عبر الأزمان.. كأننا اخترقنا حاجز الزمن لنرى مشهدًا غريبًا..

– ماذا نفعل إذًا؟

– ما رأيك أن نعود؟

– هل جننت؟ نعود لذلك القصر الذي تسكنه الأشباح.. هل ترى أنها فكرة منطقية؟

– نعم أراها منطقية.. لقد كنا شاهدين على جريمة قتل.. قل لي كيف ستحيا بعد ذلك وأنت شاهد على قتل إنسان؟

– إنه قُتل منذ زمن..

– لكنك قد شاهدت اليوم هذه الجريمة وإن لم تقتص من القاتل فأنت مجرم.

– أقتص من القاتل؟! وهل تظن أن القاتل حي بعد تلك المدة كلها؟

– كلا طبعًا.. لكن اقتصاصي من القاتل هو إعادة الحق المهضوم للمقتول ولا تنسَ أن من يكتم الشهادة فهو آثم قلبه.. ونحن شهدنا..

– هل تظن حقًّا أن ما شهدناه حقيقي وليست مجرد هلاوس؟

– لا أعتقد أن الهلاوس تصيبنا معًا.. دعنا نذهب ثانية لنتأكد..

– حسنًا سآتي معك حتى لا تقول عني إنني الجبان.

هذه المرة أيضًا ذهبنا متشابكي الأيدي كي يشعر بحرارة كل منا الآخر فيسري الدفء في جسدينا ونشعر أننا ما زلنا حيين..

وصلنا للقصر المهجور كما تركناه.. قفزنا من على السور..

لا يوجد أحد هذه المرة.. ليس هناك طربوش أو شاي..

فقط صمت مطبق..

– ماذا الآن؟

– دعنا نذهب للبحث عن شيء ما يدلنا على الحقيقة..

نظرنا إلى الحديقة الهادئة.. كل شيء كما هو إلا أننا وجدنا شجرة عظيمة لم تكن موجودة في المرة السابقة.. لكننا لاحظنا أن أوراقها تقطر سائلاً لزجًا اقتربنا منها أكثر..

وحين اقتربنا عرفنا أن هذا السائل لم يكن إلا دماء.. إن أوراق هذه الشجرة تنزف دمًا..

صرخ صديقي: شجرة تدمي!

– ربما روتها دماء عبد العزيز أفندي..

وتذكرت القبر الذي نبتت الشجرة عليه..

بدأت أنبش القبر حتى استطعت أن أنظر داخله..

إنها بقايا عظام وبقايا ملابس مهلهلة..

تحسست البدلة حتى أرى إن كان هناك شيء ما يدلني على ذلك الأمر الغريب.. وجدت محفظته كما هي.. نعم المحافظ قديمًا كانت تصنع من الجلد الطبيعي وتغلق بعناية شديدة.. قمت بفتحها وجدت ما أثار دهشتي ورعبي.. وجدت أوراق إثبات شخصيته..

إنه عبد العزيز أفندي الفارس!

– هو من عائلتك.. هل تعرفه؟

– نعم.. إنه جد أبي.. أعلم قصته.. أبي قد أخبرني بها منذ فترة.. قالوا عنه إنه كان صاحب مصنع أحذية وعلى الرغم من أنه كان يصنع ما تلبسه الأقدام فإنه كان دائمًا يحيا فوق السحاب حالمًا بالغد طموحًا..

كان كل يوم بعد أن ينتهي من عمله يذهب للبحر ينظر إلى الجانب الآخر يحاول أن يعرف ماذا يوجد على الشاطئ الآخر..

لكن عبد العزيز أفندي اختفى فجأة في ظروف غامضة..

فكان الناس يقولون إن البحر قد ناداه فلبى نداء البحر..

إلا رجلاً واحدًا كان لا يستطيع أن يصدق تلك الرواية.. كان يقول دومًا: عبد العزيز ليس ضعيفًا ليلبي نداء البحر.. عبد العزيز قوي صامد حي..

وقد قال رواية غريبة عن صديقه عبد العزيز فيها أنه يملك أحد القصور..

قاطعني صديقي: ماذا سنفعل الآن؟ هل نبلغ الشرطة؟

– وماذا نقول للشرطة؟ لقد رأينا مشهدًا عبر الأزمان واقتحمنا قصرًا ونبشنا قبرًا..

– إنها معضلة.. دعنا نُعِد القبر لهيئته ونذهب لنفكر ماذا نفعل..

على المقهى جلست مع صديقي نفكر فيما نفعله..

– هل نتوقف ونكتفي بكل ذلك؟

نظرت إليه نظرة شزرة.. هناك شيء ما يحثني على إكمال الطريق.. إنها علامات تقودني إلى شيء ما..

العملة المعدنية التي قادتنا للذهاب للقصر.. مشهد القتل.. عودتنا مرة أخرى والشجرة الدامية وفي النهاية المقتول هو جدي..

يا لها من دائرة تدور حولي وتقودني إلى حيث تريد.. لذلك لم يكن يخطر ببالي التوقف والاكتفاء بما أعرف.. أردت أن أفهم أكثر..

بدأنا البحث عن صاحب القصر في الوقت الحاضر.. واكتشفنا أنه المهندس طلعت.. مهندس يعمل بشركة كبيرة وهو أحد أحفاد جودت بيه..

قررت زيارته والحديث معه ربما توصلت للحقيقة..

صديقي هذه المرة رفض أن يأتي معي متعللاً ببعض أعباء الحياة والانشغالات.. أعلم أنه يتصنع ذلك لكنني عذرته.. فليس من الطبيعي أن تكمل طريقًا أول خطوة فيه لا تبشر بخير.. أما أنا فقد وجدت جدي هناك راقدًا تحت شجرة!

لي ثأر هناك في ذلك القصر.. ربما سيقول لي أحدكم إنها مجرد هواجس.. يأتيه ردي: وما الحياة إلا هاجس يغزو خاطرك فيقودك إلى المسير يسميه البعض أملاً ويسميه البعض طموحًا..

مهما تغيرت الأسماء فهو هاجس وهمي لو لم توقن أنك تستطيع تحقيقه فلن يتحقق أبدًا..

لذا ذهبت إلى المهندس طلعت كي أعرف أكثر..

كان رجلاً في الخمسينات من عمره.. ترى في وجهه سماحة وبشاشة قلما تجدهما في ذلك الزمان وتجد في نفسك قبولاً تجاهه..

– على الرغم من أن قصرك مهجور فإنك لم تبعه حتى الآن..

– لقد كانت وصية جدي ألا نفرط في ذلك القصر أبدًا لأن فيه ذكرياته وأحلامه..

– جودت بيه؟

– نعم جودت بيه.. أبي يرحمه الله دومًا كان يحدثني عنه.. كان يصفه دومًا بأنه حاد الملامح قاسي الطباع ترتسم الجدية على وجهه طوال الوقت.. كان يقول لي إنه أوصاه وأخته دولت ألا يبيعا أو يفرطا في ذلك القصر.. لأن به حياته وفيه مماته.. كان أبي وعمتي قد تربيا غير خاضعين لسطوة جدي.. فهما آثرا أن يملأ الحب قلبيهما بعيدًا عن حدة جدي.. لذلك استقل كل منهما بحياته

بعيدًا عن القصر وبعد وفاة أمهما عاش جدي جودت وحيدًا في القصر أكثر من عشرة أعوام لا تظلله إلا الذكريات.. وفي يوم ما شعر بأن الموت قريب أرسل إلى أبي وعمتي دولت لكي يوصيهما.. وحين حاول أن يتكلم ثقل لسانه وتوقف عن النطق.. حين رأيا عينيه الدامعتين وضعف قدرته على السيطرة على لسانه جزعا.. فكرا في أن يأتيا بقلم وورقة كي يكتب.. همَّ بالكتابة لكنه لم يكتب إلا ثلاثة أحرف: العين والباء والدال (عبد) وتوقفت قدرته في السيطرة على يده وأصبح ميتًا في حكم الأحياء حيًّا في حكم الموتى.. يشعران أنه يصرخ ولا يسمعانه.. فكرا ماذا كان يريد أن يقول.. ربما عبدتك يا رب فارحمني.. ربما عبد ذليل ببابك فتب عليَّ.. ربما.. ربما.. كثرت في أذهانهم الأقوال والتوقعات لكن دون جدوى.. وتوفي جدي وبعد فترة لحقت به عمتي دولت إثر حادث ولم تترك ابنا فآل القصر بكامله لي.. ولولا أنني أحترم رغبة جدي لبعته فلا أنوي قط أن أحيا فيه..

لا أدري لماذا قصصت عليك ذلك كله.. ربما شعرت بالراحة تجاهك.. لكن لماذا تسأل عنه؟

– لأنني رأيت جدك.. نعم رأيته.. وأعلم لماذا أوصى بعدم

بيع القصر.. فلقد رهن ذلك القصر لجدي.. وعندما جاء ميعاد فك الرهنية ذهب جدي للقصر كي يقبض ماله أو يأخذ القصر.. إلا أن جدك قد قتله..

– ماذا تقول؟ هل جننت؟

أكملت: وأعرف ماذا يقصد بكلمة عبد.. إنه يقصد جدي عبد العزيز.. إنه كان يريد أن يعترف بذنبه ولكن لم يستطع!! نعم.. ألجم الله لسانه ويده.. فهو لا يقبل سبحانه توبة قاتل إلا بعد القصاص..

بحدة صرخ في وجهي: بالتأكيد أنت مجنون.. تختلق من الأوهام قصرًا وتظنني بسهولة سأصدق تلك الخرافات..

لم أستطع أن أكبح جماح حدتي فصرخت فيه وأمسكت بتلابيب قميصه: إنه قصر جدي.. لقد رأيت جودت يدفنه..

هنا تدخل كل من بالشركة لينقذوا المهندس طلعت مني وذهبوا بي إلى قسم الشرطة..

هناك لم يصدق روايتي أحد.. اعتبروني مجنونًا أو لصًّا يريد سرقة أحد القصور.. لكنه لص غبي لا يعرف كيف يصنع قصة

قابلة للتصديق.. لقد كنت رافضًا منذ البداية أن آتي إلى قسم الشرطة لأنني أعلم أنهم لن يصدقوني فقادتني قدماي إليه مجبرًا.. حقًّا ليس كل ما نتخذه من قرارات نكون قادرين على تنفيذها.. إننا مجرد تروس تدور معًا كي تدور معها ساعة الحياة..

أخذت الضابط لأريه مكان الجثة والقبر.. فهو يريد معاينة جنوني على أرض الطبيعة..

نظر إلى القبر وقال: هذا القبر تم نبشه منذ فترة قريبة وأنت تتكلم عن جريمة قتل منذ حوالي قرن!!

– نعم أنا نبشته كي أعرف الحقيقة..

نظر إليَّ الضابط وظن أنني مجنون.. قال لي: أنصحك بألا تتكلم مرة أخرى إلا في وجود محامٍ. أنت ستضيع نفسك بأقوالك هذه.. لقد اعترفت باقتحام القصر ونبش قبر وربما لم يكن هناك قبر من الأساس وأنك قد نقلت إليه الهيكل العظمي.. وربما قتلت صاحب هذا الهيكل.. لتقنعنا بقصة وهمية وتستولي على القصر!! جرائم كثيرة من الممكن أن تكون أنت مقترفها..

أرسل الضابط للطبيب الشرعي كي يحضر لمعاينة الجثة..

بينما أمر بتحويلي إلى مستشفى أمراض عقلية للكشف على قوتي الذهنية وهل أنا بالفعل مجنون أم أتصنع الجنون..

مستشفى أمراض عقلية!

هكذا انتهى بي الحال.. هكذا قادتني العملة المعدنية.. لعبة صغيرة ملك وكتابة.. مغامرة صغيرة مجرد زيارة لقصر مهجور.. فقط كن شجاعًا!!

هكذا الشجاعة تقودك إلى مستشفى أمراض عقلية..

أحد أجدادي قُتل وترك لي إرثًا عظيمًا قصرًا منيفًا.. لكنه قصر يقود للجنون.. الآن أصبحت مثار سخرية الجميع..

أنا الأخرق الذي يرى الأشباح ويؤمن بها..

أعوام ارتضتها عائلتي أن ترضخ في ذل الحياة وهم يملكون إرثًا عظيمًا.. حتى المصنع الذي تركه جدي عبد العزيز ضاع بعد وفاته.. حملتنا رياح الحياة كالعملة المعدنية تتقلب بنا في الجو بين ملك وكتابة.. وحتى الآن لم تستقر.. لم نعرف هل نحن ملك يملك أمر نفسه.. أم أننا مجرد كتابة بقلم رصاص تُمحى بسهولة!

عائلتي عاشت الحياة كأن الحياة هي أن تجد مأكلك

ومشربك وتنام قرير العين لا تفكر في الغد.. بينما قصرها المشيد موجود.. لكنها صدقت من قال إن رب العائلة ناداه موج البحر ليقذف به إلى حيث كان يحلم إلى الشاطئ الآخر..

حتى أنا مجرد عملة معدنية حملها الهواء عاليًا قبل أن يهوي بها مرة أخرى لتجد نفسها في مستشفى للأمراض العقلية أنظر من نافذته محاولاً أن أصل ببصري إلى خارجه..

وقف بجواري أحد المرضى ينظر إليَّ بتعجب:

– لماذا لا ترتدي المايوه؟ هل ستقفز للبحر بملابسك؟

– أي بحر؟

– ذلك البحر الذي يجري تحت النافذة.. ألا تراه؟ هنا أمان.. أما أسفل النافذة فهناك بحر عميق من يخُض فيه دون أن يؤمن أنه بحر فإنه غارق..

نظرت إليه بتعجب واندهاش قبل أن يجرني أحد المرضين إلى ملاقاة الطبيب.. لكن كلماته ما زالت في أذني.. من لا يؤمن أنه بحر فهو غارق لا محالة..

غرفة الطبيب ذات نظام وترتيب أنيق والطبيب مهندم كأنه

لا يعمل بين المجانين.. نظراته أكاد أشعر بها تخترقني.. يريد أن يعرف هل أنا حقًّا مجنون أم أنني أدعي الجنون.. لو سألني ذلك السؤال مباشرة ربما كنت أجيبه أنني لا أريد أن أبقى هنا..

أن أظل طوال عمري في السجن أهون من أن أبقى هنا ساعة..

– هل أنت عاقل؟

– أظن ذلك..

– وما العقل؟

– العقل أن تشعر بالأشياء وتدركها وتقسمها بين المنطق واللامنطق فتعرف أين الحقيقة..

– وهل ما وصفته في التحقيقات من أنك رأيت جد أبيك وهو يتم قتله من المنطق؟ أترى ذلك منطقيًا؟

– كلا.. بالطبع لا أراه منطقيًا بالمرة.. ربما كانت تهيؤات.. ربما هو شيء غير حقيقي.. ربما لم أشاهد ذلك وعقلي الباطن رسم من حياتي الفارغة قصة مثيرة..

– الآن تقول تهيؤات.. كيف وجدت القبر إذا كانت تهيؤات؟

– ما حدث هناك شيء يفوق خيالي لا أعرف له سببًا ولا أعرف كيف وجدت القبر.. فقط وجدته..

– هل أنت مؤمن حقًّا أنها تهيؤات؟

(ذلك البحر الذي يجري تحت النافذة.. ألا تراه؟ هنا أمان.. أما أسفل النافذة فهناك بحر عميق من ينزل فيه دون أن يؤمن أنه بحر فإنه غارق)..

ترددت كلمات المجنون في أذني.. هل أنا مؤمن بأنني رأيت جريمة قتل أم أنني غارق في ظلمة الحياة المادية؟ هل هناك فعلاً تلك الفراسة التي ترفع الحجاب لنرى ما أسفله؟ (وامعتصماه).. هكذا هتفت بها امرأة في سجن الروم ليسمعها المعتصم في بغداد خارقة حاجز المكان.. لماذا أضن على نفسي أن أخترق حاجز الزمان لأنقذ شيئًا ما أو لأصنع شيئًا ما؟ لكن لا أحد يصدقني والكل يعتبرني مجنونا وأنا تائه بين الحقيقة والوهم..

– هل أنت مؤمن حقًّا أنها تهيؤات؟ (كررها الطبيب)..

لو أجبت بنعم قد يظنني عاقلاً.. وإن أجبت بلا فلن أذهب إلا لعنبر المجانين كما أنني ما زلت مرتابًا..

– نعم.. إنها تهيؤات..

– إذًا أنت عاقل ولا يوجد مبرر من بقائك هنا..

أمر بعودتي إلى قسم الشرطة لاتخاذ اللازم معي..

عدت إلى الضابط الذي تعجب حين قرأ تقرير الطبيب.. لم يكن يشك لحظة في جنوني.. لكن ما كتبه الطبيب جعل أفكاره تتداخل.. هل حقًا أنا عاقل؟

أمر الجندي أن يأخذني إلى مقر الحجز.. ذهبت مستسلمًا مع الجندي..

كم تعاني العملة المعدنية وهي تتقلب في الهواء.. لا تدري كيف تسقط.. تتقلب من جنون إلى سجن.. إنها هموم الحياة وقسوتها..

الآن تم سلب حريتي وتم احتجازي.. تم امتصاص دمائي وطمث جسدي في لون أصفر باهت شاحب ويعطونني لقبًا جديدًا (سوابق)..

السجن.. كم هو مرعب.. ربما أكثر رعبًا من الأشباح التي رأيتها.. بداخله ظلام.. فقط ظلام.. لا ليس فقط ظلام.. بداخله ظلام

وظلم..

ربتت على كتفي يد أحدهم:

– هل أنت حزين لأنك هنا؟

– وكيف يأتي أحدهم هنا ولا يكون حزينًا؟

– كثيرون يفرحون حين يأتون.. فهنا الناس على حقيقتهم.. حين تنظر في عين أحدهم هنا تعرف إن كان مظلومًا أو ظالمًا.. تعامل المجرم على أنه مجرم وتعامل المظلوم على أنه مظلوم.. أما خارج ذلك الباب فبحر عميق لا تتضح فيه الرؤية لا تعرف أيهم الظالم وأيهم المظلوم.. لا تفهم حقيقة الحياة أبدًا.. تتقلب الوجوه أمام الأبصار وبصائر الناس المريضة لا تفرق بين القلوب..

....

مرة ثانية تقال أمامي.. خارج هذا الباب بحر عميق من لا يؤمن أنه بحر عميق قد يتوه في معرفة الطريق..

نظرت إلى السجين باندهاش.. لقد تعلمت في هذه الليلة بين السجن والمستشفى ما لم أتعلمه في حياتي كلها.. مرت عليَّ تلك الليلة داخل الحجز في تفكير عميق وتأمُّل في الأحداث أكاد أبحث

عن حقيقة البشر.. لا أعلم لماذا الآن أشعر أنني أرى خطيبتي (حسناء).. هي حسناء حقًّا كبحر صافي الأمواج.. ذلك الجمال الذي يطغي العيون وتألفه الأرواح.. لكن ما جذبني إليها ليس ذلك الجمال السطحي.. ما جذبني إليها جمالها الداخلي.. فهي شاعرة.. لقد كتبت ديوانًا شعريًا رائعًا اسمه عقد النجوم تقول فيه:

حبيبي.. اصنع لي من النجوم عقدًا..

أرتديه على جيدي.. فأمنحك سعدًا..

ووعدًا مني عهدًا رغدًا..

فأنا جولييت السماء إن أردتني فاصعد بالسلم مجدًا..

جولييت السماء كم أحبها.. من تملك في السماء كوخًا

وتنتظر روميو الأرضي أن يضع سلمه على الشجرة العتيقة فيصعد إلى أعلى السماء فيقتني من النجوم نجومًا يصطفها عقدًا ليضعه على جيدها لأن جولييت تستحق..

لكن ذكرياتي قادتني إلى مشهد غريب.. حسناء وأنا نجلس على كازينو العشاق فوق ضفة نهر الأشواق..

أسألها بكل لهفة:

– هل تحبينني؟

– لم أتذوق الحب أبدًا من قبل.. لذلك لا أعلم..

– شاعرة الحب والرومانسية لا تعلم ما الحب؟

رمقتني بنظرة مرعبة ظنتني أسخر منها.. ثم قالت: الحب أكبر من الوصف.. وأنا لم أعرف الحب من قبل.. لذا لا أعلم بما يشعر به المحبون..

قلت: الحب هو ألا تشتاق لحبيبك فهو معك.. مسكنه عيناك.. قلبك ينبض به.. روحه إليها هيامك..

– أنت حالم إذًا!

– الحلم نعمة.. وبلا حلم لا أستحق جولييت السماء..

صمتت قليلاً نظرت للأرض ثم فاجأتني بالهروب من كادر اللوحة التي ظللت أرسمها لها طيلة الجلسة قائلة:

ماذا فعلت في العفش؟ هل ذهبت للنجار تستحثه على إتمامه؟

– بالطبع ذهبت.. لكنني لا أعلم فائدة العفش.. فقد بنيت لك في القلب قصرًا شيدته بالصدق.. أعمدته الإخلاص.. تتدلى من

أسقفه ثريات الأحلام..

نظرة باردة ثم قالت: من البلاهة أن تختلط الرومانسية بالواقع..

– أنت التي تقول ذلك وأنت التي علمتِني أن أصنع من النجوم عقدًا..

– إنها مجرد كلمات لكن إن تحكمت بك ضاعت بك بين الحقائق..

عندها غلبني النوم والألم في ذلك السجن فاستسلمت لهما ولم أقاوم.. انتزعني من ذكرياتي منامي.. فأراني أسبح في الفضاء أجمع النجمات وأضعها في خيط النور لأصنع منها أروع العقود كي أضعها على جيد حسناء.. لكن شيئًا ما استوقفني.. إنه طائر.. بالتأكيد طائر. فمن يملك الأجنحة غير الطيور؟ قادم نحوي.. إنه ليس طائرًا.. إنه إنسان يملك جناحين أبيضين كبيرين.. إنه جد أبي عبد العزيز..

– لمن تصنع العقد؟

– لأروع البشر..

– هل تظن أنها تستحقه؟

– ما دامت تملك قلبي فهي تملك أروع ما فيه..

– هذا لو آمنت هي بما فيه..

ثم طار بعيدًا بعيدًا بينما كلماته تتردد: هذا لو آمنت هي بما فيه..

ليس بقلبي إلا الأحلام فإن لم تكن تؤمن بالأحلام فكيف تكتب الشعر؟

الإيمان وحده قد يحيل اللامنطق إلى منطق..

الإيمان وحده هو الذي يصنع الحب..

أيقظني من أفكاري صوت الجندي يناديني ليعرضني على وكيل النيابة.. لقد أرهقتني كثرة الأسئلة.. الضابط.. الطبيب.. والآن وكيل النيابة.. هي الأسئلة نفسها تتكرر.. والأجوبة نفسها تتكرر.. ولا أحد فيهم يصدقني.. ولا يستطيعون أن يثبتوا جنوني وأظل هكذا من مكان لآخر في أسئلة لا تجد أجوبة..

بعد الأسئلة المكررة فاجأني وكيل النيابة بأمر جديد:

– لقد وصل تقرير الطب الشرعي عن الجثة التي وجدناها

في القبر الذي أرشدتنا عنه ويقول التقرير إن الجثة لم يتبق منها إلا هيكل عظمي وإن الميت قد توفي منذ أمد بعيد جدًّا أكثر من سبعين عامًا وإن بقايا الملابس التي كانت حول الهيكل العظمي تثبت ذلك أيضًا.. لكننا لم نجد شيئًا يوضح هوية المقتول..

قلت لنفسي: نعم فأنا قد أخذت المحفظة ولم أقل ذلك في التحقيقات خوفًا من أن أوقع نفسي في مشكلات جديدة ويقال إنني أخفي الأدلة كما أنني لست واثقًا في ذلك كله.. أخاف أن يكون كل ما عشته في هذه الأحداث وهمًا وأنه لم تكن هناك قط محفظة..

– وعلى ذلك فمن المستحيل أن تكون أنت من قتل صاحب الجثة.. فهو ميت من قبل أن تولد بكثير.. لذلك يتم الإفراج عنك بضمان محل الإقامة.. لكن ربما استدعيناك للتحقيق مرة أخرى إذا ثبت أنك نقلت الجثة إلى حديقة القصر حتى تدعي أنك صاحبه كما أنك يجب أن توقع إقرارًا بعدم التعرض مرة أخرى للمهندس طلعت..

وافقت على الفور حتى أخرج من ذلك الكابوس.. لكن هناك شيئًا بداخلي يصر على إكمال الطريق.. إنه الحرية..

نعم.. الحرية من قيود الحياة المادية.. أنا أميل إلى أن ما

رأيته قد حدث بالفعل ولن أرتاح قط حتى يتم إثبات ذلك.. فبعد كل ما حدث لن يرفع رأسي أو يحفظ ماء وجهي إلا إثبات ذلك.. بينما كنت خارجًا من النيابة وجدتها تنتظرني..

نعم.. إنها خطيبتي حسناء.. أراها جميلة.. ربما أجمل النساء.. لكنني أشعر دومًا أنها مادية أكثر مني.. كلما كلمتها عن البحر والقمر تكلمني هي عن الشقة وتجهيزاتها.. لذلك كان من الطبيعي أن يحدث ما حدث..

– نيابة وحجز ومستشفى أمراض عقلية.. هكذا أنت يا خطيبي الهمام تنكس رأسي في التراب..

لم تعجبني قط نبرة السخرية في صوتها:

– لو حقًّا تحبينني كنت آمنت بما قلت وكنت صدقتِني حين كذبني العالم وكنت دافعت عني حين اتهموني بالجنون..

نظرة ساخرة مرة أخرى منها:

– أتريدني أن أكون نزيلة العنبر المجاور لعنبرك في المستشفى أؤمن أن جدك الذي اختفى منذ عشرات الأعوام قد عاد من جديد لتراه يُقتل أمام ناظريك؟

– لأن هذا ما حدث بالفعل.. لو قلت لك إنني سآتي إليك بنجوم السماء وأصنع منها عقدًا أضعه على جيدك الجميل.. هل كنت ستصدقينني؟

نظرة بلهاء ألقتها عليَّ.. ربما آمنت الآن.. ليس بي ولكن بأنني مجنون.. لأن ما فعلته بعد ذلك ينم عن شعورها بجنوني.. خلعت الدبلة من إصبعها وألقتها وسارت بعيدًا..

الغريب أنني لم أحاول أن أركض خلفها أو أشعر بالحزن تجاهها..

أبي أيضًا كان ينتظرني عند خروجي من النيابة.. لكنه وقف بعيدًا حتى أنهي كلامي مع حسناء بعد أن رأى خطبتي تنفسخ أمام ناظريه..

هتف بي:

– لقد فضحتنا.. كيف تجرؤ على أن تضع رأسنا في الوحل؟

– لم أفعل ذلك يا أبي ولم أقل إلا ما رأيت وما عرفت..

– جدي عبد العزيز اختفى عام□□□□ أي منذ أكثر من سبعين عامًا.. كيف تراه الآن؟ لو هو حي حقًّا فإن عمره قد يتخطي

مائة وعشرين عامًا..

– أقسم إنني رأيت جدك يا أبي.. أقسم إنني رأيته يقتل.. يا أبي البحر لم ينادِ جدي وجدي لم يلبِّ نداء البحر.. نعم كان حلمه أن يصل للشاطئ الآخر لكنه لم يغرق..

ألم تخبرني قديما يا أبي أن هناك رجلاً كان صديقًا لجدك عبد العزيز وكان يقسم إنه لم يلبِّ نداء البحر وإنه يملك قصرًا منيفًا فأخبرني أين أجده..

– تجد من؟

– ذلك الرجل..

– أنور النشرتي؟ هل أنت مجنون؟ بالتأكيد هو مات..

– أين أجد ابنه أو حفيده؟ أي أحد منهم..

– حسنًا سأتبع جنونك إلى ما لا نهاية.. حسنًا سأدلك على حفيده الشيخ بلال..

كالعادة وحيدًا أكمل الطريق.. حتى صديقي توقف عن مجاراتي في الجنون على الرغم من أن كل ذلك بسبب اقتراحه بالذهاب للقصر المهجور.. لكن حينما وجد مستشفى أمراض عقلية

وحجزًا ونيابة توقف عن مناصرتي وتركني وحدي أكمل الطريق أبحث عن الحقيقة..

المسجد يلوح من بعيد.. تمضي خطواتي نحوه.. ربما لو كان مسًّا من الجن ما يعييني ربما يتم شفائي داخل المسجد..

خطواتي تتسابق.. صلاة العصر أقيمت..

أصلي في خشوع ربما ينجيني ربي من كل ما أنا فيه من اضطراب بين الحقيقة واللاحقيقة.. بين المنطق واللامنطق..

– اسمي صلاح الفارس.. جدي عبد العزيز الفارس.. أتسمع عنه؟

ابتسم الشيخ بلال ابتسامة عريضة:

– أهلا بالكريم ابن الكرام.. بالطبع أعرف جدك وعائلتك بأكملها.. إننا قد تربينا معًا في بيوت واحدة.. أنور النشرتي وعبد العزيز الفارس كانا روحًا واحدة في جسدين.. كل منهما مستودع أسرار صاحبه..

– حسنًا ربما هذا يقرب عليَّ الطريق.. لقد رأيت جدي عبد العزيز يشرب كوبًا للشاي في القصر المهجور فيسقط ميتًا ورأيت

جودت بيه يدفنه.. فما رأيك في ذلك؟

– رأيت ذلك يقظة أم منامًا؟

– بل يقظة ورآه صديق لي كان معي..

– إنه يتوافق مع ما قاله جدي.. لقد كان دومًا يتغنى بجدك.. ودومًا مسار حديثنا صباحًا ومساءً وأذكر أنه قال لي إنه كان شاهدًا على رهنية ذلك القصر على جودت بيه لصالح عبد العزيز..

– أنا لم أقل لك شيئًا عن الرهنية..

– لكنني أنا أعرف.. جدي قال لي ذلك.. كن موقنًا أن ما رأيته صحيح.. عندها فقط ستعرف كيف تصل إلى هدفك.. الإيمان وحده يجسد الحقائق وبلا إيمان لا توجد حقيقة..

– لكن أليس ذلك ضربًا من الجنون.. أن أرى مشهدًا بعد حدوثه بسبعين عامًا؟

– كلا.. إنها الحياة دومًا تحمل لنا أشياء عجيبة وترينا من المواقف الغريبة كي نؤمن أكثر بالغيبيات ونعرف أكثر وأكثر عن قدرة الله..

– نعم يجب أن أمضي في طريقي حتى أصل إلى الحقيقة..

– الحقيقة بداخلك أنت ولن تجدها خارجك.. الحقيقة معك أنت فقط ولن تقابل من يفهمك.. يجب أن تعي الدرس.. حين تخوض البحر يجب أن تأخذ حذرك وتوقن أنك ستصل إلى الشاطئ.. عند الشاطئ ستجد نفسك..

بحر وشاطئ وغرق مرة أخرى وما زالت العملة المعدنية تتقلب في الهواء لم تصل أبدًا إلى مقرها الأخير حتى تتضح العلامة "ملك أو كتابة"..

جمعت أذيال الشك ووضعتها في حقيبة النسيان ورميتها في البحر بعيدًا وسلحت نفسي وقلبي بإيمان لا يتزعزع بما شاهدت بعدما رأيت الشيخ بلال.. فقد تحول شكي إلى يقين أن ما رأيته حقيقي..

قادتني قدماي إلى نقطة البداية.. إلى القصر المهجور مرة أخرى.. فحين تعييك التفاصيل يجب أن تخوض التجربة من جديد وتعود لنقطة البداية ربما تجد تفصيلة تعينك على إتمام الطريق..

دخلت القصر وجدته هادئًا كما تركته ليس به أحد..

هجرته الطيور كما هجره البشر.. لا أعرف ما الذي يمكن أن أفعله هنا..

صرخت: أين أنتم؟ تعالوا.. فهموني..

أصرخ بصوت أعلى: جودت بيه.. أين أنت؟ قد أتيت برغبتي..

وأصرخ وأصرخ كالمجنون دون أن يجيبني أحد..

وفي زمرة يأسي قررت أن أدخل القصر ربما كان بالداخل شيء يثلج صدري..

تحايلت على إحدى النوافذ وقفزت منها إلى الداخل..

لا يوجد شيء.. تراب وغبار يملآن المكان.. وعفش يدل على ثراء القرن الماضي.. لكنه يفتقد الحياة..

قادتني قدماي إلى حجرة المكتب.. فتحت أدراج المكتب أبحث عن أي شيء.. عن أي ورقة.. أحدث نفسي: هو بالتأكيد أحرق ورقة الرهنية فعمَّ تبحث؟

لكن حتى هذا الهاجس لا يوقفني.. فقط أبحث..

وجدت خزينة كبيرة بجوار المكتب.. لم أهتم كثيرًا بأن

أقضي باقي عمري في السجن يلقبونني بالسارق.. لذلك حاولت أن أفتح الخزينة بالعنف.. حاولت كسرها دون جدوى.. أمسكت بمقبضها وحاولت إدارته..

لكنني رأيت مفتاحًا يوضع في ثقبها وتقوم بإدارته يد لم تلبث أن توضع فوق يدي التي على المقبض – دون أن أشعر بلمسة اليد – وتقوم بإدارة المقبض وتفتح الخزينة.. أنظر برعب إلى صاحب اليد.. إنه جودت بيه..

أرى أوراق الرهنية أمام عيني.. أمد يدي لأمسكها.. لكنني لا أمسك إلا الهواء.. لا أستطيع الإمساك بها..

وفي ذهول مني رأيت جودت بيه يمد يديه ويمسك بالأوراق..

لم يرني أو يشعر بوجودي على الرغم من أنني أقف بجواره..

قالت له زوجته التي تقف بجوار باب المكتب: هل ستحرقها؟

– كلا بالطبع..

– لماذا لن تحرقها؟ هل تخاف من النار؟

– إبليس نفسه يخاف من النار.. لكنني لن أحرقها لأنه ربما يأتي يوم يصحو فيه ضميري وأعترف فيه بفعلتي وأعيد القصر لصاحبه..

– ما دمت تعترف أنك أخطأت لماذا تعاند؟ لماذا لا تتوب الآن؟

– إنها النفس يصعب ترويضها ولا أقوى على مقاومتها أجدني ضعيفًا أن أعترف بذلك..

– لماذا إذًا أخذت الأوراق من الخزينة؟

– لأن أولادي أول ما سيفعلونه بعد وفاتي هو تفتيش الخزينة.. وأخاف أن يجد أحدهم الأوراق فيحرقها كي لا يؤخذ منهم القصر فيشاركني الذنب.. رفقًا بأولادي سأخفي الأوراق في مكان آخر حتى يظهره الله..

نظرت الزوجة بنظرات شك مريبة إلى زوجها حاد الملامح الذي يجمع بين الخير والشر بين الذنب والتوبة.. إلا أن الشر أوضح فيه والذنب أجلى.. لكنه ما زال بشرًا لا يقوى على مقاومة

نفسه ويعميه الرجاء في العودة إلى الله بالتسويف ولا يستطيع الندم على الرغم من أنه يعلم أنه مخطئ وما زال يشفق على أولاده..

غادرا الغرفة وأنا خلفهما – بل بينهما إن جاز التعبير – أراهما يصعدان إلى غرفتهما.. أمسك بعمود السرير وقام بتفكيكه ووضع بداخله الأوراق وقام بتركيبه مرة أخرى.. ثم اختفيا كأنهما مجرد دخان..

أصبحت وحيدًا بالغرفة.. فككت العمود.. أخذت الأوراق ونزلت من الغرفة في طريقي للخارج.. لكنني وجدته على منضدته.. وجدت جدي عبد العزيز.. أمامه فنجان الشاي.. لكنه هذه المرة نظر إليَّ.. نعم نظر مباشرة إلى عيني وابتسم لي.. إنه يراني.. لم يرتشف الشاي مرة أخرى بل نبتت له أجنحة بيضاء وطار بعيدًا ربما إلى الشاطئ الآخر من البحر..

لم أذهب إلى البيت مباشرة.. بل ذهبت إلى المهندس طلعت.. شيء ما بداخلي كان يقول لي إن طلعت ليس كجده لا يقبل على نفسه حرامًا.. شيء ما بداخلي يرتاح لطلعت.. ربما كتبت على نفسي إقرارًا بأنني لن أتعرض له ربما سأقضي بقية الليلة في الحجز

لكنني مؤمن بحدسي.. سأذهب إلى طلعت..

– مرة أخرى أنت؟

– نعم أنا صلاح الفارس مرة أخرى.. لكنني هذه المرة لن أمسك بتلابيب قميصك ولن أقول لك خرافات أو تهيؤات.. فقط سأعاملك بالماديات..

لقد وجدت ورقة الرهنية.. لكن عدني إن ثبتت صحة الأوراق أن تعطيني القصر..

– أتظن أنني أقبل على نفسي قصرًا شُيد على باطل.. وهو في الأصل مهجور لن أسكنه ولن أستطيع بيعه لوصية جدي؟ أعدك إن صدقت أوراقك أن أعطيك القصر.. لكن عدني أن تحتفظ بما رأيت سرًّا ولا تتكلم فيه أكثر من ذلك حفاظًا على حرمة جدي..

– أعدك..

والآن صرت مالكًا للقصر المهجور..

أصبح لصلاح الفارس أملاك ولم يصبح نكرة.. أصبح لصلاح الفارس قلب يقوده وعقل وظيفته فقط أن ينير له الطريق..

قال لي أبي يومًا: صف لي جدي عبد العزيز..

– إن جسمه ممتلئ قليلاً.. له شارب عريض ويوجد بجبهته أثر للسجود.. وعيناه قويتان تشعر أنهما يحملانك بعيدًا إلى حيث لا مكان.. طامحتان في الغد.. لقد تعجبت حين رأيته.. كيف لمن يملك هاتين العينين أن يلبي نداء البحر؟!

ابتسم أبي وقال لي: صف لي جودت بيه..

– كل ما أذكره أنه كان حاد الملامح..

– هل كان بوجهه شارب؟

– لا أتذكر.. هناك بعض البشر تسقط من الذاكرة ملامحهم ولا يتبقى منهم إلا مجرد انطباع.. ولكن دعني أتأكد..

اتصلت بصديقي: أبي يسألني هل كان وجه جودت بيه يحتوي على شارب..

أجابني إجابة مدهشة فقد قال: ملك يكون له شارب.. كتابة ليس له شارب..

لم أستطع أن أمنع نفسي عن الضحك من تلك الإجابة.. لقد أصبحت عملة معدنية تتحكم في ملامح جودت بيه..

صار ضحكي قهقهة ثم لم يلبث أن أصبح ضحكي انفجارًا..

حين قال صديقي: كتابة..

تسامٍ

أشعر كأنني خيط دخان تجذبه الشمس إليها فيتصاعد ويرتفع عاليًا وعاليًا ثم يتلاشى..

أشعر كأنني طيف يهيم في بيداء قاحلة يبحث عن قطرة ماء في عينيها تُذرَف حين تراه..

لكنه لا يرتوي إلا سرابًا فأنتِ لا تريني..

أأرتضي أن أحيا هكذا؟

طيف يجوب الخلاء.. دخان تبيده السماء؟

اليوم سأجمع من بساتيني أفضل الزنابق لأصنع إكليلك المفضل وسأقتلع قلبي من صدري وسأغسله بماء فرات يخرج من ينبوع الطهارة لأنظفه من كل ذنوبه فلا يلوث أناملك العطرة.. لكنني موقن أنه ليس لقلبي ذنب غيرك..

اليوم سأخرج يدي من نافذة القطار كي أجذب ما تبقى من روحي الراحلة عني..

اليوم سأجمع كل دخاني المتلاشي لأصنع سحابة عظيمة أحملك عليها وأرحل بعيدًا بعيدًا.. حيث لا مكان..

اليوم سأدع روحي تقودني إلى بيتي الذي لا أعرفه.. لم أكن أعلم أنكِ تجيدين فن العمارة.. كم هو رائع ذلك البيت..

ضعي تلك الأرائك هناك وضعي تلك الكتب هنا واقرئيها.. فلن تجدي فيها إلا اسمك..

وضعي القلب في القفص كأنه عصفور حبيس ينتظر منك ذلك الفتات الذي ينساب من بين أناملك فيعيد له الحياة..

اليوم سأثور.. يجب أن تريني..

سأقف وأقتطع طريقك حتى تشعري بي..

لذا وقفت أمامك أمنعك من المرور ولم أكن أعلم أنك تستطيعين المرور من خلالي..

ولم أكن أظن أنك حين تعبرينني لا تمرين للطرف الآخر..

فقط تختفين بداخلي..

ويختفي معك قلب أسير وروح حائرة وحلم وليد..

ولا تتركين لي إلا سؤالاً يمزقني: من منا كان الطيف؟

حمائم داجنة

كانت تطير في سلام لا تخشى مهاجمة النسور لها.. فهي تعشق الحرية ولا يقيدها خوف..

من يرَها يسعد ويشعر أن الحياة ما زالت تحمل الجمال بين طياتها..

لكن في النصف المعتم من قمر حياتها الجميل الذي كانت تحياه كان يقف هو واضعًا بندقيته أمام ناظره ومسلطها تجاهها.. وفي لحظة صمتت الرياح وسكنت الطيور.. انطلقت تلك الطلقة الحمقاء لتصيب جناحها فتسقط كسيرة الجناح..

اقترب الصياد من الحمامة المصابة يقلبها بين أنامل يديه.. إنها هزيلة وضعيفة.. ماذا سيفعل بها؟ رماها وراء ظهره لتعاني وحيدة قسوة الطبيعة فوق ذلك الوادي المتشقق..

في الجوار كان هناك ثعلب يراقب كل ما يحدث.. تقدم بهدوء تجاهها.. أخيرًا اليوم فريسة بلا تعب.. أخيرًا ذلك الوادي

المتشقق قدم له أطيب الهدايا..

قرب أنفه منها.. لكن حينما حاول أن يأكلها سمع صوت كلب في الجوار على الفور.. فعل كما تفعل الثعالب.. رقد على أرض الوادي وقام بتقليد الموتى.. لكن الكلب لا يعرف أن هناك موتى أحياء فظنه ميتًا فابتعد عنه واقترب من الحمامة المصابة..

وضعها بين فكيه برفق وجرى بها بعيدًا نحو صاحبه.. ربما مثل هذه الحمامة قد تصنع له بعض البهجة التي افتقدها من صاحبه منذ فترة.. فلم يعد يلعب معه كثيرًا كسابق عهده..

كان الرجل حزينًا حقًّا.. هذا ما شعرت به تلك الحمامة حين نظر إليها.. رأت في عينيه دمعات متحجرة وشعرت بغصة تملأ قلبه.. لكنها لم تلبث أن رأت عينيه تلمعان فجأة.. لم تفهم.. لكنها وجدته يحملها ويجري بها بعيدًا..

ذهب إلى أحد البيوت وطرق الباب.. كانت هي من فتحته له.. ولأن الحمام كائن روحاني شعرت كأن أنامله التي يمسكها بها هي ما تنبض وليس قلبه.. بالتأكيد هو يحبها.. وفي تلعثم حروفه وهو يحدثها يتأكد حدسها..

– هل إحدى حمائمكم ضائعة؟

اندهشت الفتاة.. فليست لديهم حمائم من الأساس.. لكنها لم تندهش كثيرًا.. فهي تعلم أنه يعشقها وأنه يتحين أي فرصة للقائها..

– إنها كسيرة الجناح.. فهل اعتنيتِ بها؟

لم تجب أيضًا كأنها تضن عليه أن يستمع إلى صوتها أو كأنها لا تريد أن تعلقه بأحبال صوتها مرة أخرى فتشنقه..

لذلك مدت يديها بصمت وتلامست الأيادي لحظة.. فقالت ما لم يقله اللسان أعوامًا..

أمسكت بالحمامة.. ومنذ أول وهلة شعرت أن تلك الحمامة جزء كان ضائعًا منها.. ربما روحها الكسيرة التائهة التي لم تقوَ على الطيران.. احتضنت الحمامة بكل عشق وقبلتها وأقسمت إنها ستعمل على أن تطير مرة أخرى..

كان الثعلب يقف على مقربة يراقب بحذر ذلك كله ويتحين لحظة الهجوم ليحمل فريسته ويهرب بها بعيدًا.. فهي هدية الوادي المتشقق ولن يسمح لأحد أن يحرمه منها.. وفي دهاء الثعالب

يقترب بصمت ويقترب ويقترب.. لكن الحاسة السادسة لدى الكلاب جعلت هذا الكلب ينبح..

حينها دق الرعب في قلب الثعلب.. بدأ في الهروب.. طارده الكلب ليخرج بعيدًا عن الأنحاء..

فيجد بيتًا منعزلاً لم يعرف أنه بيت الصياد.. لكنه وجد أخيرًا بغيته.. حظيرة دجاج بجوار البيت فدخلها آملاً في عشاء لا مثيل له.. لكن تعجب حين دخل.. فحظيرة الدجاج لا تحوي دجاجًا.. إنها حمائم..

كيف توضع الحمائم في حظيرة دجاج؟ لم يطل تساؤله.. فهذه الحمائم لا تقوى على الطيران كسيرة الأجنحة.. يا لها من فرصة سانحة..

قام الثعلب في نهم الذئاب وشره الضباع بفعل واجبه تجاه نفسه فقام بأكل الحمائم حتى شبع وما بقي منها قام بقتله ليخلف وراءه مذبحة..

ويذهب بعيدًا شاكرًا الوادي المتشقق على هديته العظيمة هذا المساء آملاً في فرائس مماثلة غدًا..

بينما استيقظ الصياد ليجد كل ما قام بصيده ذهب هباء في معدة ثعلب ضال.. اشتعل الغضب في صدره.. كيف هو من يصطاد وغيره ينعم بفرائسه؟ أقسم أن يعف عن صيد الحمائم ويصيد الثعالب..

في الوقت ذاته كان الكلب واقفًا على قائمتيه بجوار صديقه الهائم الذي ظل ينحت بقلبه ملامحها حتى يضخ ملامحها في كل جزيئات جسده فتعيد إليه الحياة..

بينما هي ما زالت تناجي حمامتها: ستطيرين.. أقسم إنك ستحلقين عاليًا مرة ثانية ولن أسمح لأي شيء أن يكسر جناحيك.. قريبًا ستضعين بيضك فوق السحاب ليمطر السعادة فوق رأسي وستناجين القمر.. ربما أرسلت معك رسائل للقمر.. هكذا هو الاتفاق أن أعيد لكِ التحليق وتدعيني أحلق معك..

مثلث برمودا

أجري من دون هدف.. شيء ما يلاحقني على الرغم من لفحات الوحدة القاسية التي تداهمني.. لكنني خائف من شيء ما..

بيتي يلوح من بعيد.. هرولت بأقصى سرعة إليه.. الآن سأجد الأمن والأمان..

يداي تكادان تخترقان جيوبي بحثًا عن المفاتيح..

هل ضاعت؟ لا أعرف.. ربما وقعت في أثناء الهروب..

إنني أتنفس الاختناق.. يا له من شعور..

دقاتي متوالية على الباب بكل قوة تبقت في ذراعي وصوتي ينادي بأقصى ما يملك على من يفتح لي الباب..

– لا أحد هنا.. اذهب..

لم أتعجب من تلك الإجابة كثيرًا ولم أتعجب أن لا أحد موجود بالداخل ومع ذلك يرد..

إنما أصابني الهلع لأن (لا أحد) يرفض أن يفتح لي الباب..

هل يخاف أن ألوث البيت؟

أين أذهب؟ بمن ألوذ؟

(لا أحد) يسمعني ويرفض أن يجيب..

أشعر أنني غارق أمد يدي فوق الماء أقاوم انجراف التيار أبحث عن يد أخرى تعانق يدي.. لكن (لا أحد) لا يجيب..

أنجرف نحو تيارات اليأس بقوة.. أسقط من أعلى كصخرة جرفها الشلال في طريقه لا تعرف من أين أتت أو إلى أين تذهب..

تنادي فيسمعها (لا أحد) ولا يجيب..

استسلمت حين رفضني بيتي وواجهت مصيري بصدر مفتوح..

تعالَ أيها الموت سريعًا فأنا ميت قبل لقائك..

تعالَ أيها الموت سريعًا فأنا أتلاشى..

أتلاشى.. وأصير (لا أحد)..

قصاصات ورق

أمسك بمقصه صار يقص الورقة على هيئات البشر.. هذه أمي.. هذا أبي.. هذا أخي الأكبر.. هذه أختي الصغرى.. هذا صديقي.. بقي جزء من الورقة بلا ملامح.. قال: هذا أنا..

عين الحياة

– أحبك حتى آخر العمر.. أحبك حتى تسقط الشمس وتقع النجوم.. أحبك حتى تفقد الأرض جاذبيتها.. أحبك للأبد..

– أحبك بكل نفس يدخل جوفي.. أحبك عدد نبضات قلبي.. أحبك ولا أعلم كيف يمكن أن أعيش بعدك.. لذا أتمنى أن يميتني الله أولا..

– أنا أيضًا لا أعرف كيف يمكن أن أعيش بعدك.. إذًا فلنمت سويًّا أو نحيا أبديًّا كي نوثق لحبنا عمرًا طويلاً.. سمعت أن هناك عينًا تدعى عين الحياة تمنح الخلود لمن يشرب منها فلنبحث عنها سويًّا فأنا أحبك للأبد.. والأبد يعني حقًّا الأبد وسأثبت لكِ صدق ما أقول..

امتطيا جوادًا واحدًا وضعها أمامه على الجواد.. كان يشعر بعبئها وثقلها على جسده.. لكنه كان يفكر أن المشوار وإن طال فهو أقصر من العمر والعمر نفسه قصير.. فلأتحمل ذلك العبء الذي إن

أتى منها لا يهم فهي كل ما أحب وكل ما أملك في تلك الدنيا..

انطلقا يبحثان عن عين الحياة في الفيافي والبوادي في الكهوف والجبال في عيون الأطفال البريئة.. بحثا عن الحياة في قلب العجوز الحكيمة.. بحثا عن الحياة.. بحثا عنها في دموع التماسيح المرائية في عقول الثعالب الماكرة.. بحثا عنها هنا وهناك ولم يكلا عن بحثهما قط على الرغم مما رأيا من الحياة..

وجدا طفلاً صغيرًا سألاه عن عين الحياة..

فأجاب أنه يعرف مكانها.. إنها هناك في تلك البحيرة التي في أعلى منتصفها جبل.. عليهما صعود الجبل لأنه فوق قمة الجبل هناك بحيرة هي عين الحياة..

تعجبا.. كيف يصمد الجبل بلا أوتاد فوق بحيرة مائية؟ كيف يبقى دون أن تكون له جذور؟ وكيف لا تجذبه الأرض وتشده إليها؟

أجاب الطفل: الموت هو وتد الحياة.. وبلا موت لا تستقيم الحياة.. وبلا موت تسقط الحياة.. فكيف تتعجب من جبل فوق ماء ولا تتعجب من خلود بلا فناء؟

– وهل شربت من تلك العين؟

الطفل: ولماذا أشرب وأنا أعلم أن كل حياة مهما طالت مصيرها إلى زوال؟!

انطلقا في اتجاه البحيرة.. ولدهشتهما رأيا المشهد الخيالي الذي لم يحلما به.. انطلقا يسبحان في البحيرة حتى وصلا إلى الجبل.. صعداه وأخيرًا وجدا عين الحياة.. ارتشفا منها الرشفة الأبدية الخالدة كي يثبتا للعالم ولنفسيهما أن الأيام وإن طالت لن يفتر حبهما..

عادا إلى جوادهما.. حملها أمامه شعر بعبئها على جسده.. لا يستطيع التحرك بسهولة هذه المرة.. قال لنفسه: هل كتب عليَّ أن أتحمل ذلك العبء للأبد؟ والأبد هنا يعني الأبد..

حينها عرض عليها أن يضعها على حصان آخر وينطلقا معًا.. في البداية عارضت لكن تحت إصراره وافقت..

وانطلق الجوادان يقتلان الصحراء يقطعان الأيام والسنين..

وفي أحد الأيام قال لها: سأبحث لنا عن صيد للغداء.. فامكثي مكانك حتى أعود..

بينما هو يبحث عن الصيد وبينما هي تنتظره رأى حصانها أفعى تحت قدميه فخاف وجرى بعيدًا.. الرعب يحمل قدميه في أن تسابقا الريح.. وهي رعبها كان أكبر..

حين عاد لم يجدها وهي لم تعرف أي طريق سلكه الحصان.. فلم تعد.. وضاع العاشقان في الطريق الأبدي..

بحث عنها في كل مكان.. في الفيافي والبوادي.. في عيون الأطفال وقلوب الشيوخ.. في دموع التماسيح وعقول الثعالب.. بل بحث عنها في روحه..

الأيام تمر.. أكثر من مائة عام يبحث عنها في الحياة.. وفي كل يوم كان يموت أكثر من ألف مرة تقتله آلام الوحدة ويأس الأبدية يحطم معنوياته..

هو مخلد لن يموت وسيبقى في عذابه للأبد ولن يجدها.. ومع ذلك لم يتوقف عن البحث.. فالوقت وإن ظل أبديًّا فهو يملكه..

بحث عنها في كل مكان وبينما هو يبحث وجد شيخًا لم يعرف أنه الطفل الذي قابله منذ مائة عام.. لكن الشيخ عرفه وأخبره عن نفسه..

– هل عندك علاج للأبدية؟ هل هناك شيء ما يريحني من عذابي الأبدي وينزع عني ما فعلته بي عين الحياة ويبطل مفعولها؟

– نعم هناك حل.. اذهب إلى البحيرة نفسها واسبح حتى تبلغ الماء تحت مركز الجبل.. هذا الماء سيبطل المفعول..

– كيف أن الماء تحت الجبل يختلف عن باقي ماء البحيرة الطبيعي؟ إن الماء كله واحد..

– الأيام كلها واحدة.. لكنها لا تتشابه.. افعل ما أقول لك إن أردت أن تنتهي من ذلك العذاب..

فعل ما قاله العجوز وحمل معه قربته التي ملأها من البحيرة تحت مركز الجبل وعاد يكمل طريقه بحثًا عنها.. لن يقرب الماء إلا وهي معه.. لن يتحمل أن يريح نفسه من العذاب ويتركها تعاني وحدها.. ما زال يبحث ويبحث..

في القرى والمدن.. في الحضر والصحراء.. في الجبال والبحار.. إلى أن وجدها..

وجدها بعد مائة عام أخرى..

مائتا عام قد تفرقا فيها.. لم ينقطع صوت نحيبها.. لم

تنقطع دموعها.. تعجبت لعينيها.. كيف صمدت تانك العينان وهما تذرفان مائتي عام من الدموع؟!

الأبد.. ما أقساه من شعور حين تعرف أن الموت هو الشيء الوحيد الذي ينقذك وهو لن يأتي فأنت مخلد..

حين رآها لم يستطِع أن يمنع نفسه من عناقها..

الغريب أنه على الرغم من مرور مائتي عام على الفراق لم تنطق الألسنة.. لم يتعاتبا.. كانت العيون فقط هي التي تتكلم..

حملها على حصانه.. لم يشعر بعبئها هذه المرة على جسده.. كان يشعر بارتياح عارم..

وانطلقا يسابقان الريح.. يخرجان من مشهد البشر.. يبعدان إلى أقصى الحياة.. يحملان حياتهما بقلبيهما وينطلقان..

مرت قرون وقرون وأخبارهما منقطعة لا تصلنا..

يقول بعض الناس إنهما شربا من قربة ماء البحيرة حتى يبطل مفعول عين الحياة وإنهما عاشا فترة معًا تحلق على رأسيهما السعادة وفي النهاية ماتا معًا في الوقت نفسه..

في حين يقول البعض إنهما ما زالا باقيين حيين وإن ما

يشعر به العشاق من لهفة وشوق هو بسببهما؛ لأنهما يأتيان ليلا فيقطران في فم العشاق ترياقًا خاصًّا يشعرهم بتلك الأحاسيس والمشاعر..

بينما يقول البعض الآخر لا نعلم أين هما الآن لكن الأهم أنهما معا..

ويقول البعض.. ويقول البعض.. ويقول البعض..

كثرت الأقاويل عن حياتهما.. لكن كل ما يقال هو بعيد عن الحقيقة..

فهما الآن يعيشان معًا فوق سحابة بيضاء ما زالا يتبادلان معًا أحاديث الهوى التي لا تنتهي.. ويتبادلان نظرات العشق التي لا تفنى..

وتظلهما شجرة عظيمة نبتت فوق تلك السحابة ترويها أحاسيسهما.. ومن حين لآخر يراقبان العشاق في الأرض.. وكلما شعر قلب بالحب أثمرت تلك الشجرة ثمارًا طيبة يسميها البعض السعادة ويسميها البعض العذاب.. لكنهما لا يستطيعان أن يمنعا نفسيهما عن إدمان تلك الثمار العجيبة.. ومن فوق تلك السحابة ما زالا ينظران إلى أهل الأرض الفانين بعين الحياة..

خمس دقائق

نظر لساعته وجدها الثانية إلا خمس دقائق.. دومًا لا يتأخر في مواعيده عندما يكون الأمر من أجلها.. فهو تعوَّد أن يأتي في ذلك الوقت من كل يوم كي يصطحبها من مقر عملها للمنزل.. فهو يعشقها ولا يتحمل لحظات يمكن أن يراها فيها ويغفل عنها.. لذلك فهو يقف بمكانه دومًا منتظرًا إياها في الجهة المقابلة من محل عملها..

وهي كذلك كانت تنظر لساعتها.. بقيت خمس دقائق كي تقترب منه.. كي يضمها ويؤنسها وينسيها إرهاق يوم شاق..

خمس دقائق لكنها تمر ساعات على قلوب العشاق..

وفجأة حدث ما لم يكن في الحسبان.. توقفت عقارب الساعة عن المسير.. معلنة أن الوقت الآن وبعد الآن وفي كل آن هو الثانية إلا خمس دقائق..

نعم.. لقد أعلنت الأرض تمردها وقررت أن تتوقف عن الدوران..

ربما شعرت بالتعب بعد تلك القرون كلها من الدوران..

ربما شعرت أنها تتعب من أجل من لا يستحقون.. أسباب كثيرة تدعو الأرض للوقوف لكن الأغرب من ذلك أنه لم تحدث أي كارثة مثل الزلازل والبراكين والفيضانات كما يتوقع الخبراء في تلك الحالات.. فقط توقف الزمن..

دخلت إلى مديرها تستأذنه في الرحيل.. فالساعة متوقفة وهو ينتظرها.. لكن المدير رفض رفضا باتا قائلاً إنها تعمل في مركز بحوث وإن أمرًا طارئًا كهذا الأمر يحتم عليها البقاء ومنع كل الموظفين من الرحيل..

مرت الساعات ثقيلة ولم تنتهِ الدقائق الخمس..

وهي منشغلة في عملها الطارئ.. لكن ذلك لم يمنعها بين الحين والآخر أن تنظر من النافذة لتراه ما زال واقفًا..

عندما كانت تنظر إليه كان شعورها يتناقض بين الفرحة بأنه ما زال صامدًا تحت حرارة شمس ظهيرة الصيف القوية من أجلها وبين شفقتها عليه فتشير له إشارات بأن يذهب فيرفض أن يرحل من دونها..

في كل مرة يحدث ذلك كأنه يعلن صموده وبقاءه وأنه أقوى من حرارة الشمس وأكثر شجاعة من الإرهاق..

* * *

في دولة أخرى بعيدة جدًّا يختلف توقيتها الرسمي عنا بمراحل كان هناك اجتماع رئاسي يدرس تلك الظاهرة.. كان الرئيس غاضبًا كيف لم يستطِع علماؤه اكتشاف تلك الظاهرة الكونية.. وإلى متى يتوقف الزمن..

فيجيبه الصمت فيزيد ذلك من غضبه..

– أنبقى نحن أسرى ذلك الظلام طوال العمر بينما غيرنا ينعم بالنور؟ أنبقى أسرى الكهرباء ونفاد الطاقة بينما غيرنا يرتع في الشمس وطاقتها النقية؟ أتموت محاصيلنا بلا شمس بينما هم يأكلون وينعمون بالضياء؟ هذا ليس حسدًا.. فالحسد إنما يغزو القلوب الضعيفة إنما هو مجد الأقوياء.. لن نذل أنفسنا إليهم إن شاءوا أعطونا وإن شاءوا رفضوا.. إنما سنفاوضهم على قوتهم وطاقتهم مفاوضة الأقوياء.. فأرسلوا كتيبة طائرات تشن هجومًا على عاصمتهم كي يروا بأسنا بعدها نفاوضهم..

* * *

بينما هي منشغلة في عملها الطارئ أرَّق أذنيها صوت أزيز قوي.. أزيز يكاد يقتلع الزجاج من النوافذ..

أزيز مخيف ترتاع له قلوب الشجعان.. فزعت.. جرت على النافذة لتنظر.. وجدته ما زال واقفًا.. نادته لم يسمعها.. فالأزيز شديد..

أشارت إليه بالرحيل وكالعادة رفض..

نظرت إلى أسراب الطائرات المقبلة بقلق عارم.. وهذا المجنون الذي يرفض أن يلوذ بما يحميه وبقي كعادته واقفًا من أجلها..

انهالت القذائف من حوله ولم يرحل..

ولم ترحم تلك القذائف قلبًا محبًّا أفناه الهوى فاخترقت القذائف ذلك القلب العاشق فأودت بحياته على الفور أمام ناظريها وهي تطل من النافذة بذهول..

حينها فقط عادت عقارب الساعات لعملها بعد إضراب طويل.. لكنها عادت بجنون.. إنها تجري بسرعة..

والأرض أيضًا قد جُن جنونها فدارت بسرعتها القصوى حول الشمس.. بل خرجت عن مدارها وجرت في اتجاه الشمس..

حينها اجتاحت العالم الزلازل والبراكين والفيضانات..

حينها لم تتحمل الطائرات ذلك التغيير المفاجئ في الطقس فسقطت.. بينما هي لم تشعر بشيء.. فزلزال قلبها أقوى من كل زلازل الأرض وحرارة قلبها أقوى وأشد من حرارة الشمس التي تجري الأرض في اتجاهها..

لم تعرف أن اتزان الأرض كان ناتجاً عن قلب عاشق كان أقوى من كل جبال الأرض.. فمنع الأرض من الدوران وحفظ اتزانها..

لم تعرف أن حبه هو ما حفظ الأرض من الهلاك ومن بعده ليس للأرض غير الهلاك..

كانت تنتظر خمس دقائق لتلقاه.. فمرت سنوات حياتها أمام عينيها ولم تنتهِ قط الدقائق الخمس..

مظلة

بينما يسيران في الطريق المظلم أمطرت مطرًا غزيرًا فضمها إليه أكثر..

وأخرج مظلته وفتحها ليقترب رأساهما أكثر..

فسألها: هل تعرفين يا زوجتي لماذا تمطر؟

قالت: خبراء الأرصاد يقولون إن رياحًا...

أوقفها قائلاً: خبراء الأرصاد لا يفهمون أنها تمطر كي نتقارب أكثر وتضمنا مظلة واح دة

حنين

عاد من مدرسته وجدها نائمة.. ظن أنها مرهقة فتركها.. فهي كل ما تبقى له بعد رحيل والده..

ذاكر دروسه وتناول غداءه ونام..

استيقظ فوجدها ما زالت نائمة.. ظن أنها استيقظت طوال الليل وهو نائم فتركها وذهب إلى مدرسته وعاد فوجدها ما زالت نائمة..

فاشتاق أن يسمع صوتها.. حنينه إليها فقط ما جعله يتجرأ ويناديها: أماه.. أماه.. لكنها لم ترد أبدًا..

حان الهوى

في حان الهوى دارت الكئوس فانتشت الرءوس..

في حان الهوى صار الكل سكارى إلا هي بقيت منتبهة..

كانت الأنثى الوحيدة في الحان.. ومن فرط نشوتهم صاروا يتمعنون في جمالها..

صاروا يذوبون حين تبتسم.. يغرقون في بحور عينيها.. يقتلون بنظراتهم تفاصيلها..

صاروا يغوصون في بحار الهوى دون أن يعرفوا معنى السباحة فغرقوا..

وهي كانت تستلذ من نظراتهم.. كانت تشعر أنها المليكة المتوجة على عرش الحان وكل أولئك لها عبيد..

راقت لها اللعبة فابتسمت.. وحين تبتسم يتلوون.. تضحك.. وحين تضحك يتنهدون.. تتمايل.. وحين تتمايل يصرخون..

كانت تشعر بأنوثتها الطاغية.. ولكن هل هي أنثى؟

فالأنثى هي الكائن الرقيق.. أما هي فتاجرة الرقيق..

راقت لها اللعبة.. ومع كل غمزة من عينيها تدار كئوس الخمر القانية ليزيد الانتشاء وهي منتبهة..

دعاها أحدهم للرقص فهب الآخرون كل منهم يصيح: ولِمَ لا أراقصها أنا؟ فتشاجروا وتقاتلوا..

ودق للحرب ناقوس.. وأُديت للشجار طقوس.. وقامت معركة ضروس..

فسالت الدماء..

سالت الدماء فضحكت ضحكات مجلجلة سادية تصب دماءهم في الكئوس وتحتسيها.. وكلما زادت ساديتها زاد جنونهم بهواها..

وزاد قتالهم من أجلها..

فللسادية جمال لا يراه إلا المنتشي..

صرخات الرجال والدماء تنفجر من الصدور التي كانت سباياها دون شفقة..

كئوس الخمر وكئوس الدم تدار في الحان والقتال متواصل

وأشلاء القتلى تحت أقدامها متناثرة.. ومع كل قتيل تضحك أكثر فيزداد جمالها السادي..

لم يبقَ إلا رجلان بدا تأثير الخمر يبهت ويقل من رأس أحدهما فأثارته ضحكاتها ورأى أنها بيت الداء.. فأراد أن يقتلها فافتداها صاحبه المخمور بقلبه فأصابته الطعنة في قلبه فسقط صريعًا وسط ذهول قاتله..

زادت ضحكاتها الجنونية..

وزال تأثير الخمر عن عقله فعرف جرم ما صنع فبكى..

بكى لأن القاتل الأخير هو من يحمل ندم كل أسلافه..

فكر أن يقتلها.. لكن الخمر التي كانت تجعله جريئًا على فعل الإثم زالت.. وقتلها إثم.. فهي لم تقتل أحدًا ولكنها أوحت..

نعم أوحت بالقتل لكنها لم تحرض عليه.. فقتلها جريمة..

كاد يقتله الندم وتمنى أن يكون مخمورًا في تلك اللحظة ليفعل آخر جرائمه فيقتل نفسه أو يقتلها..

فخرَّ جاثيًا تحت قدميها يبكي وأشلاء أصحابه بجواره وكئوس الخمر مسكوبة وأنهار الدم تجري.. فلا يستطيع التمييز

بين الخمر والدم..

بكاؤه ملأ المكان ولا ينافس نحيبه إلا ضحكاتها التي لم تنقطع وهي تغادر المكان بخطواتها الرشيقة تاركة إياه بين اللاحياة واللاموت..

فكتبت على باب الحان:

كانت هنا حياة..

فهوى الهوى بالحياة..

فمات الموت وما بقيت حياة..

وغادرت الحان باحثة عن حان جديد وضحكاتها تخرق سكون الليل..

شاي مر

طلب من النادل كوب شاي.. وطلب أن يكون السكر خارج الكوب..

راقبه النادل من بعيد.. كان يراه يرتشف من كوب الشاي المر ولا يضع السكر به ويشعر بمرارة الشاي على وجهه..

وبين كل رشفة وأخرى ينظر شريدًا في اللاشيء..

لم يستطع النادل أن يكبح جماح فضوله فسأله عن ذلك..

– كنت أريد أن أعرف إلى متى يمكن لنفسي أن تتحمل مرارة الشاي وبجوارها السكر..

وشرد بنظره تجاه المنضدة القريبة منه حيث تجلس هي مع أحد الأشخاص..

طاقة

بحثت عنها في المعجم فلم أجد مادة تحويها بل هي التي تحوي معجمي بأكمله..

هي الطاقة التي لا تنتهي على الرغم من أنني ودعت جسدها للأبد وواريته التراب..

إلا أنها كالطاقة تحولت لتسكن جسدي وتمتلك جوانحي فلا أرى إلا بعينيها ولا أسمع إلا بأذنيها..

ولا ينبض قلبي إلا بها..

طاقة تسري في عروقي لا تفنى ما دامت أنفاسي تتوالى في صدري..

ما بي من طاقة هو.. هي..

ما بي من حيوية هو.. هي..

بحثت في معجمي عن مادة تحتويها ولكن الطاقة لا

تُحتَوى..

بحثت في معجمي فما وجدت فيه غير مادة واحدة هي اسمي ويُعرَف بأنه.. هي..

احتباس حراري

أخرجت شفرتي لأسن قلمي الذي أتعبه الصمت الدائم..

حتى إنني نسيت وجوده.. سننته وتركته ينطلق.. لكن الشفرة أصابت أصابعي فأغرقت الورقة بالدماء..

صرت أكتب والدماء تتساقط والورقة تتحول إلى بقعة حمراء كبيرة..

أرغمت قلمي على الصمت حتى يتوقف النزيف..

لكن قلمي رفض الاستجابة لي.. فعنفته وحاولت إيقافه دون جدوى..

كنت أود أن أرغمه على كتابة أشياء أخرى لا تؤلمني وتعيد النزف.. لكن حرارته بدأت ترتفع وأشعر بسخونته في أناملي..

الدماء تعاود السقوط كلما أجبرني على أن يكتب ما يريد.. وحرارته تزداد كلما سجنته وأجبرته أن يكتب ما لا يؤلمني.. كأنه فرس جامحة غضبى تكره القيود وتعشق الانطلاق..

في النهاية رضخت له وتركته يكتب ويكتب وأنا أتحمل ألم ما ينثر خير لي من أن أتحمل ألم صمته وغضبه وحرارته.

تسونامي

كانت حوريات البحر جزعة وهلعة.. لقد انتابها الملل من كثرة مطاردة أسماك القرش لها..

كل لحظة تحيا الموت وتنجو بأعجوبة..

قررت أن تستبدل بذيولها أجنحة وتطير بعيدًا عن البحر..

في السماء لا توجد أسماك قرش..

السماء رحبة لن يؤذيها أحد..

الآن ستسبح بين السحاب.. ستلمس النجمات.. سترى الحياة من أعلى بعد أن كانت في أسفل السافلين..

وحين وضعن الأجنحة وقررن الطيران..

بكى لفراقهن المرجان ودمعت أفراس البحر والسرطانات..

حاولت أن تثنيهن عن تلك الأفكار دون جدوى..

ورفرفت الأجنحة وصعدن لسطح البحر وبدأ التحليق..

لكن كيف لمن عاش حياته كلها يسبح أن يطير؟

كيف لمن كان يعتمد في حركته على ذيله أن يعتمد على أجنحته؟

لذا اختل توازنهن وسقطن في المحيط..

لكن المحيط لفظهن حين لفظنه وثارت مياهه كي يرميهن خارجها..

بدأت موجات المحيط الغاضبة تثور وتهدر والغضب بلغ بالموج مداه إلى أن بلغ بهن اليابسة ورماهن في دنيا البشر..

ثقب أسود

كأي فتاة كانت ترتشف من الأحلام كل ليلة عصير السعادة..

لكن تحطمت كل الأكواب حين طرق بابها أول الخطاب..

حياة أسرية هادئة متجددة.. هكذا كانت البداية..

لكن في الخفاء هناك بين أستار الليل الأسود كان جدار يشيد..

جدار صمت توضع قواعده بهدوء.. ومع الوقت بدأ يزداد صلابة وقوة.. حتى إنها لم تستطع الصمود أمامه..

تشعر كأنها تسبح في الفضاء الخارجي.. فراغ سرمدي يعم الوجود.. وهو وهي منعدما الجاذبية يسبحان بلا دفة وفي الفراغ لا توجد شواطئ..

سباحة أبدية بلا هدى..

يصرخان فلا يسمعان صوتيهما.. فكيف ينتقل الصوت في

الفراغ؟

وهنا لاح من بعيد ذلك الكيان الأسود الذي يجذب كل السابحين في الفراغ إليه.. من أول وهلة فهمها..

وعرف أن أزهارها تحتاج قليلاً من الماء لتنمو في قلبها فلم يبخل بقطراته المسمومة..

لتعود خضرة الحياة إلى الوجدان وتنعم ببعض ما ظنت أنه طي النسيان..

بدأت تنجذب في اتجاهه رويدًا رويدًا.. يمتص طاقتها بهدوء وهي مسلوبة الإرادة تمضي إليه..

تبتعد وتبتعد عن رفيق حياتها الذي تركها ظمأى.. وتقترب وتقترب لكيان أسود خدعها ببعض الماء..

وحين انفصلت عن السابح الآخر.. لم تجد من جذبها.. بل وجدت نفسها ما زالت تسبح..

لكنها الآن تسبح وحيدة في فراغ سرمدي..

وحيدة بين المجرات تلتمس بعض الوجود في دنيا الفراغ المخيف..

اختفى ذلك الكيان فجأة كما ظهر فجأة..

لكنه بين ظهوره واختفائه فقدت قلبها وروحها

واستقرارها التي لا تعرف أين فقدتها..

القطار

كان القطار يجري سريعًا وهو ينظر من الشباك.. شجرة وراء شجرة.. عمود وراء عمود.. بيت وراء بيت.. حتى اكتشف أن اليوم يجري وراءه يوم وتساقطت الأيام حتى بلغ ستين عامًا..

اليوم آخر أيامه كرئيس للقطار وقد طلب منه زملاؤه أن يرتاح وأنهم سيقومون بعمله.. في البداية تذمر وأراد أن يقوم بعمله كاملاً.. إلا أنه تراجع عن طلبه؛ لأنه فكر أن يجرب مغامرة أن يصعد القطار لأول مرة كراكب وليس كموظف بداخله..

ثلاثون عامًا بداخل القطار نفسه.. أصبح جزءًا من ذلك القطار.. كل قطعة فيه له فيها بصمة.. كان يرفض الترقيات وأن يدع القطار..

يرفض الأعمال الإدارية؛ لأنها تنتهي في وقت الظهيرة.. فماذا سيفعل باقي اليوم؟ إن الفراغ مع موظف مثله مرتبه ضئيل لهو شيء مقيت ممل..

أما هو فالآن داخل القطار يريح دومًا زملاءه.. يقوم بورد‌ياتهم حتى يشعر بالتعب فيذهب للنوم ويعود مرة أخرى للقطار..

حياته داخل تلك العلبة الحديدية.. ترك العالم الخارجي بكل شروره وأهوائه بكل إغوائه وضلاله.. بكل فساده ونفاقه واستبدل به ذلك القطار.. كانت متعته وهو يرى كل يوم أناسًا مختلفين يصعدون وينزلون يرى أجيالاً مختلفة ونماذج مختلفة.. يرى فتاة خائفة تهرب من أهلها.. يرى رجلاً يبحث عن ثأر أخيه.. يرى لصوصًا يتفقون على سرقات في بلاد مجاورة.. يرى طلابًا فاشلين فاسدين.. وكان كعادته يصمت غير مبالٍ ما دامت مملكته الصغيرة التي هي القطار غير متضررة من تلك الأفعال..

هكذا كان يصمت ثلاثين عامًا غير آبه بشيء.. حتى اكتشف اليوم وهو يجلس مثل الركاب أنه أتى عليه اليوم ليغادر القطار وهو لا يمتلك حتى أسرة.. لم يتزوج؛ لأنه كان يظن أنه متزوج من ذلك القطار..

جلس متأملاً ينظر نظراته الأخيرة لحياته.. أو للعلبة الحديدية.. لاحظ السيدة التي تجلس بجواره تحمل طفلها على كتفها فتذكر أنه سيغادر تلك الحياة عن قريب دون أن يترك

امتدادًا له.. فأثَّر ذلك على نفسيته أكثر مما قبل.. صار يضحك للطفل ويغمز له والطفل يضحك..

أرادت الأم الذهاب إلى الحمام فطلبت منه أن يرعى الصغير.. فحمله بين يديه ولم يستطع أن يكتم دمعة من عينيه على ضياع حياته.. كان ينظر إلى هذا الطفل كأنه امتداد مفقود أو حبل مقطوع بين زمنين..

عندها بادله الطفل البكاء.. تأثر كثيرًا.. أراد إضحاك الطفل مرة أخرى ولكن هيهات.. الأطفال لا ينخدعون بسهولة.. فلو لم تكن من الداخل مبتسمًا فإنك لا تستطيع أن تجعل طفلاً يبتسم..

عادت الأم وأخذت وليدها ولم تلبث أن جعلته يسكت من ذلك البكاء..

وعاد هو لتأملاته.. كان يشعر أن القطار يسير بسرعة أكثر من ذي قبل.. كان يريد أن يطلب من السائق أن يمشي برويَّة وعلى مهل.. ولكن هيهات.. إنه ملتزم بمواعيد ثابتة.. كان لا يعرف ماذا سيفعل حين يقف القطار.. كان لا يدري كيف ستكون حياته.. تمنى لو انقلب القطار.. لكنه رفض تلك الفكرة وطردها سريعًا حين

لمح الطفل النائم ببراءة على كتف أمه..

وصل القطار إلى محطته الأخيرة.. عندها بدأ يقدم رجلاً ويعيد أخرى.. لا يعرف كيف سيعيش حياته بلا هذا القطار.. ثلاثون عامًا لا يعرف غيره..

فعل كما يفعل أصحاب المعاشات دائمًا.. اشترى الجريدة وذهب إلى المقهى ليقضي بعض الوقت لربما تمر الأيام سريعًا على المقهى كما كان يحدث داخل القطار.. طلب كوبًا من الشاي وبدأ تصفح الجريدة.. كان دومًا يعتبر تلك الجرائد كاذبة وكان يضحك دومًا على الأخبار التي تتناقلها.. واليوم هو مضطر أن يقرأ تلك الأخبار المكذوبة والتافهة بدءًا بالمانشيتات فوق اسم الجريدة..

(تونس حرة).. حدث نفسه: ولماذا يكون ذلك الخبر "مانشيت"؟ استغرب الخبر: إنه حتى لا يخص مصر.. وماذا في كون تونس أصبحت منطقة حرة مثل بورسعيد؟ يالالأخبار التافهة..

المانشيت الثاني (مصر تعلو).. تذكر فيلمًا كان قد رآه منذ أيام في استراحة المحطة بمناسبة رأس السنة الهجرية.. كان الممثلون يقولون فيه: اعلُ هبل.. والآن يقولون: مصر تعلو.. الآن

فقط اعترفوا أن مصر مثل هبل وأنها كالأصنام.. ربما يبهرك طريقة نحتها ربما تشد أنظار الناس بجمالها.. لكنها لا تتقدم.. مجرد حجر أو صنم لا يغدو ولا يروح لا يضر ولا ينفع.. الآن فقط قد عرفوا أن مصر مثل هبل.. لقد عرفت تلك المعلومة ودريتها منذ ثلاثين عامًا حين آثرت قطاري على البقاء في ذلك البلد..

ألقى الجريدة بجواره وبدأ يرتشف كوب الشاي.. شعر أن طعم الشاي مختلف.. في الماضي كان يشرب الشاي للقدرة على التركيز والبقاء في العمل.. أما الآن فطعمه عبارة عن ماء ساخن به بعض السكر وعلى الرغم من ذلك يشعر بمرارته.. ربما لأنه أصبح روتينًا جديدًا في حياته..

قرر أن يقرأ الجريدة مرة أخرى كي يضيع بعض الوقت.. وبدأ بخبر (مصر تعلو).. وملخص الخبر أن مصر قد ازدهرت اقتصاديًّا في ظل النظام الحالي طوال الفترة الماضية.. ابتسم بداخله وهنأ نفسه على أنه فهم ما بين السطور دون أن يقرأه.. إنها تلك الأكاذيب المعتادة.. أصبح النظام الحاكم مجرد صنم يختلقون حوله البطولات الوهمية الحالية.. وتذكر قول أحد الممثلين في الفيلم: (إنني أعرف قصة كل إله) وصار يضحك..

بدأ يقلب أوراق الجريدة حتى وصل إلى خبر (تونس حرة).. حينها تسمر في مكانه لا يعرف ماذا يقول وبماذا كان يشعر.. ماذا يعني ذلك الخبر؟ إن الخبر ليس معناه أن تونس منطقة حرة مثل بورسعيد.. ربما كانت بورسعيد حرة أيام العدوان الثلاثي.. أما الآن فتونس حرة..

هل يعني أنه قضى عمره كله داخل القطار من أجل لا شيء وأنه كان يستطيع أن يغير كل شيء؟

هل كان يستطيع أن يبدل حياته؟

هل هذا ممكن؟

هل كان يستطيع أن يقول لا؟

تذكر ما حدث في انتخابات الرئاسة حين أجبروه أن يخرج ليصوت بعد تهديده بخصم مائة جنيه من مرتبه فخرج مثله مثل غيره من المواطنين الشرفاء وكان ينوي أن يقول نعم لأنه لم يتعلم أن يقول لا.. حين وصل إلى سرادق الانتخاب وبدأ يوقع على حضوره رأى الموظف يأخذ الورقة ويضع العلامة بدلا منه ويضعها في الصندوق.. لم يشعر في حياته كلها بمثل الذل في تلك اللحظة وهو

يتحدث بصوت مكتوم دون أن يسمعه أحد: لماذا؟ لقد كنت سأضع العلامة نفسها.. لماذا لم تدعني أقوم بالاختيار؟!

والآن بعد هذا الوقت كله اكتشفت أنني أستطيع أن أقول لا وليس لا بصوت مكتوم بل ليس لا في ورقة بالية توضع في صندوق لا نعرف ما فيه.. بل لا عظيمة.. لا جليلة.. لا بعلوِّ الصوت..

كم كان يشعر بالإحباط.. ثلاثون عامًا يراقب الناس يتذكر أنه رأى طفلا عنده عشرة أعوام يسافر مع أبيه دومًا.. صار يتابعه يكبر يومًا بعد يوم عندما صار طالبًا جامعيًّا يسافر في القطار نفسه.. وبعد أن تزوج صار هو وأبناؤه يصعدون القطار نفسه وهو يراقبه ويحسده ويشعر بأشد الألم..

إن حياته بالقطار لم تكن سعيدة.. بل كانت سجنًا داخل علبة حديدية.. والآن يقولون له إنه كان يستطيع أن يبدل تلك الحياة..

ارتباك واضطراب وحالة من خيبة الأمل والاعتزاز بالنفس..

خيبة أمل على ثلاثين سنة داخل قطار.. واعتزاز لأنه

عرف أنه يستطيع أن يقول ويعبر عن كل مكنوناته..

ولكن ماذا سيفعل الآن؟

هل بقي في حياته شيء؟ ستون عامًا لا أهل.. لا أسرة.. لا أبناء.. لا وظيفة.. وأكثر من ذلك أنه لا قطار..

حياته بعد الستين.. هل هي نهاية أم بداية؟

هل هي حقيقة أم وهم؟

في تلك اللحظة تذكر الطفل الصغير وهو على كتف أمه وحدث نفسه بشأنه: كم تراك يا صغيري ستبقى داخل القطار؟

بعد بضعة أيام جلس في المقهى المعتاد على المقعد المعتاد في المنضدة المعتادة يرتشف من كوب الشاي المعتاد يقلب بين صفحات الجريدة المعتادة وحيدًا كالمعتاد.. فالحياة بعد المعاش روتينية معتادة؛ لذلك دومًا يجد نفسه يريد الهروب من ذلك كله بمحاولة ملاحظة الذي يدور حوله بدقة.. محاولاً معرفة ماذا يقول القهوجي لمعلمه أو ماذا يدور بين الاثنين الجالسين عند باب المقهى أو ماذا يشرب الرجل الصامت هناك..

هكذا كانت حياته خلال بضعة أيام من المعاش.. وفجأة

تناهى إلى مسامعه بعض من الشباب الجالسين على المنضدة المجاورة يتفقون على حتمية الخروج للتظاهر ووضح من نبرتهم غضبهم على ظروف الحياة الصعبة وفشل النظام في تحسين سبل العيش فاقترب بكرسيه منهم.. في البداية توجسوا خيفة منه.. لكن وجهه البشوش ذا التجاعيد الذي تظهر عليه علامات البؤس والمعاش جعلهم يرتاحون إليه.. فسألهم عن المظاهرات التي يتكلمون عنها ومتى سيخرجون ولماذا يخرجون..

ضحك أحدهم قائلاً: تسألني لماذا؟ انظر ماذا يفعلون بنا يا أبتاه.. انظر إلى لحيتي هذه التي أصبحت ماركة مسجلة.. في أي كمين أو لجنة يتم إيقافي وقضائي ليلة كاملة في الحجز ستقول: لماذا إذًا لا تحلقها؟ أقول: لأنني لا أريد ذلك.. ولحيتي حق مكتسب لي وحدي لا يجبرني أحد على شيء ما.. وصديقي هذا بينما هو جالس على ذلك المقهى حتى أتى ضابط شرطة فسأله عن بطاقته وبينما يقرأ الاسم تشابهت لديه الأسماء فظنه شخصًا آخر فصفعه بقوة.. فثارت الدماء في عروقه وهمَّ أن يرد الصفعة فأمسكه المخبرون وكالوا له الضربات.. وحتى بعدما تبين أن صديقي ليس من يبحث عنه قام باحتجازه أيامًا ووصى عليه مخبريه؛ لأنه حاول أن يرد الصفعة.. ثم تسألني لماذا!

نحن يا أبتاه في بلد لا يحترم شعبه.. في بلد حياة الإنسان فيه أقل أهمية من الحيوان..

فكر رئيس القطار فيما يقول الشاب.. يبدو أن أشياء كثيرة كانت غائبة عنه وهو داخل قطعة الحديد.. يبدو أن هناك مرارة متوارثة وأبعادًا أكبر.. لكنها تصب جميعًا في بوتقة واحدة هي حتمية الخروج لتغيير تلك الأوضاع.. فقال: إذًا سأخرج معكم للمظاهرة..

في اليوم المحتوم تجمع مع الشباب وخرجوا معًا يدًا في يد ينادون ويهتفون.. طريقهم معروف وكلمتهم واحدة وقلوبهم تنبض بالدماء نفسها.. واجهوا أيامًا من القمع معًا.. تحملت أعينهم غازات القنابل وصدورهم ألم الرصاصات المطاطية ببسالة لا تثنيهم أي محاولة للأمن حتى تمكنوا من الوصول إلى الميدان بعد انسحاب الأمن.. حينها صار الميدان لهم وحدهم.. بدءوا في تنظيم ميدانهم ليكون مدينة حرة تحوي ملايين البشر..

كان ينظر إلى اللافتات في كل مكان يقرأ الكلمات المكتوبة حوله.. لا للفساد.. لا للطوارئ.. لا للرشوة.. لا للتزوير.. لا للظلم.. لا للواسطة.. لا للإهانة.. لا للبطالة.. لا... ما هذه اللاءات كلها؟ ومن أين تجمع هؤلاء كلهم؟ كلهم حانقون على النظام.. كلهم

قرروا النزول من القطار.. إنه بالتأكيد كان مخطئًا في محاولته البقاء بعيدًا طيلة السنوات الماضية مستسلمًا لكهفه الحديدي.. أخيرًا شعر بأن هناك من مثله حانق ومغتاظ..

قرر ألا يجلس فقط.. بل قرر حمايتهم.. فانضم للجنة شعبية على حدود الميدان..

قال له الشباب: يا أبتاه لماذا لا ترتاح ونسهر نحن على الحراسة؟ فإنك مسن وقد لا تتحمل.. ثم إن هذه اسمها ثورة الشباب..

قال رئيس القطار: أتظن أنك أكثر شبابًا مني؟ لقد كنت منذ أيام قليلة أقطع مئات الكيلومترات ماشيًا داخل القطار جيئة وذهابًا.. ثم إنني أريد أن أتطهر من ذنوب ثلاثين عامًا قضيتها مستسلمًا يائسًا.. أن يأتي يوم أستطيع فيه أن أصرخ وأقول لا.. لذلك لن تستطيعوا أن تثنوني عن البقاء ساهرًا حارسًا.. حلم راودني أعوامًا ماضية وهو حلم أن تكون لحياتي معنى.. فأنا كنت بلا عائلة والآن قد وجدت عائلتي.. لذلك قررت أن أحميها..

أمام إصراره لم يستطيعوا أن يتكلموا.. وتبادل مع الشباب

الحديث والضحك وأيضًا الصداقة.. فهو لم يكن له أصدقاء قبل اليوم.. لكنه اليوم وجد عددًا ضخمًا من الأصدقاء الحقيقيين.. لم يكن يرتاح إلا ساعات قليلة بعدها يعود لموقعه في اللجنة يقوم بالحراسة والتفتيش..

وفي أحد الأيام أتى العديد من الناس الذين تظهر عليهم علامات البلطجة والإجرام يحملون أسلحة بيضاء وهراوات وسيوفًا وغيرها..

حاول منعهم هو ورفاقه.. تبادل معهم إلقاء الحجارة وبدأت الإصابات مع المواجهات..

وجد نفسه غاضبًا حانقًا مغتاظًا.. شعر أنه يجب أخيرًا أن يكون له دور في بناء ذلك المجتمع.. حان أن ينزل عن قطاره ويلتحم..

أمسك بالحجارة وبادلها للبلطجية وهو يصيح: لن يعلو هبل مرة أخرى.. لن يعلو هبل مرة أخرى.. حان وقت تحطيم الأصنام.. لن أدعكم أيها الأشرار أن تقتلوا أنبل البشر..

وتحت سطوة شجاعته هو والشباب بدأ البلطجية في

التراجع.. فلم يلحظ من فرط حماسته أنه يطاردهم وهو يرمي الحجارة صائحًا بكلماته.. لم يلحظ أنه يبتعد عن الشباب فوجد نفسه بين البلطجية الذين قد استفردوا به كالوا له ضربًا بالهراوات والأقدام وهو ينطق الكلمات نفسها: لن يعلو هبل مرة أخرى.. لم يحترموا شيبته أو عمره فلم يتوقفوا عن الضربات.. الدماء صارت تنزف من أنفه.. علامات الإعياء على وجهه.. أما لسانه فينطق الجملة نفسها: لن يعلو هبل..

رآه الشباب فقدموا لإنقاذه وتبادلوا الحجارة مع البلطجية حتى استطاعوا أن يستخلصوه منهم.. لكنه كان بحالة إعياء شديد.. لم يستطع أن يقاوم أكثر.. فالعمر يجري به وقلبه لم يتحمل.. سقط مغشيًّا عليه.. قادوه إلى المستشفى..

رئيس القطار عاش ستين عامًا وحيدًا بلا أسرة.. بلا زوجة.. بلا ولد.. وبعد ستين عامًا أخيرًا وجد أسرته.. هؤلاء الشباب هم أسرته الذين كانوا يتبادلون البقاء معه والسؤال عنه وهو في المستشفى.. كانت حالته الصحية مزدرية.. إلا أنه كان عندما يصحو من غيبوبته يسأل عن الميدان وأحواله..

وفي أحد الأيام أتى له الشباب بعد العصر يجلسون معه

ويحاولون تسريته فأحضروا له تلفازًا صغيرًا وعند تشغيله رأوا نائب رئيس الجمهورية يقول بيانًا مغزاه أن رئيس الجمهورية قد تخلى عن جميع مهامه وأسندها للقوات المسلحة.. حينها تعالت صيحات الشباب فرحًا وزهوًا وانتصارًا.. حتى رئيس القطار لم يستطع أن يمنع انفعاله بتلك اللحظة.. السعادة والضحك والابتسام أخيرًا عرفت طريقها إليه بعد أعوام عاشها كأنه قطعة حديد داخل الكهف الحديدي لا يحمل أي انطباع.. باردًا كملمس الحديد البارد..

لكنه الآن عرف أن بداخله قلبًا يستطيع أن يبث الإحساس والمشاعر في جسده.. لكن قلبه العجوز لم يتحمل كل تلك الفرحة التي لم يتعود عليها.. بدأ يشعر بالألم والاختناق.. في تلك اللحظة ارتسمت له صورة الطفل الذي رآه آخر يوم قبل معاشه.. رأى ابتسامته..

فوجد نفسه يقول: إن رأيتموه فقولوا له...

هتف أحد الشباب: من هو؟

أكمل رئيس القطار كأنه لم يسمع سؤال الشاب: إذا رأيتموه فقولوا له إن رئيس القطار تنحت عنه حياته كي تعيش أنت رافعًا رأسك عاليًا..

قولوا له إن رئيس القطار قد عانق العدم كي ترى النور..

كي ترسم فجرًا جديدًا في كتب التاريخ..

قولوا له إن رئيس القطار عاش نكرة.. لكنه لم يمت نكرة..

مات كي تحيا أنت..

قولوا له لقد آن الأوان كي تغادر القطار..

ومع كلماته فاضت روحه..

في ظل صمت الشباب حوله لا يعرفون هل يفرحون بنصرهم أم يبكون على فقيدهم.. وتعالت صيحات الفرح من التليفزيون للذين هم في الميدان.. أما هؤلاء الشباب فقد ترقرقت أعينهم بالدمع على رئيس القطار الذي لم يتعرفوا عليه إلا منذ أيام قليلة.. لكنها حقًّا كانت أيامًا مجيدة..

أبيض

أمسكت الحياة بريشتها المصنوعة من الوهم لترسم خطوطًا زاهية الألوان فوق اللوحة البيضاء..

لكن سرعان ما ذابت تلك الألوان لتترك فراغ اللوحة الأبيض..

بينما أنا كالأبله أنظر إلى ذلك الفراغ الأبيض أحاول أن أستقي منه.. صورة..

سيد النزال

على شاطئ الحياة المدهش ذي الطبيعة الخلابة حيث الموج الأزرق الرائع ونسمات الهواء الرقيقة..

وألوان الصخور الزاهية..

استللت سيفي بقوة..

فأنا سيد النزال..

من فيكم مثلي؟

ألا ترون كيف يلمع نصل سيفي في ضوء الشمس؟

حين ألوح به في الهواء صوته يدخل في القلوب الرعب وهو يخترق النسمات..

أشعر أنني هو ذلك السيف حين يرتبط عقلي بيدي بسيفي لتصبح شيئًا واحدًا..

شيئًا واحدًا اسمه أنا..

كانت هذه الذكريات تخترقه وهو ينظر إلى السيف المعلق

على الجدار.. بينما هو جالس على مقعده المتحرك وعلى كتفيه تربت يدان ناعمتان بحنان..

قال بصوت ضعيف: عذرًا لأنني كنت سيد النزال..

تحركت لتكون أمامه بوجهها البشوش تخبئ دمعة حارقة تريد الهرب من عينيها وهمست إليه: لا عليك فقد كنت أعشق ذلك.

إعصار

– أين أجد السعادة؟

– في السماء..

أتى بسلم كبير درجاته متباعدة كي يصعد إلى السماء حتى يجد السعادة.. لكن لم يزل يصبه الإنهاك والتعب حتى قرر الارتياح قليلاً..

سألته الرياح: ماذا بك؟

– أريد الصعود إلى السماء.. لكن صعود السلم مُنهِك..

– حسنًا يمكنني أن أحملك إلى السماء بطريقة أسرع..

وصنعت الرياح إعصارًا مهولاً من الأرض للسماء وحملته داخل دوامة الإعصار ترتفع به عاليًا..

كان يشعر بأن ذلك الإعصار أشبه بالأرجوحة فيصيبه ذلك بالانتشاء والروعة.. ومع صعوده إلى السماء كان ينظر لأسفل فيرى الناس صغيرة والأشياء صغيرة فيشعر بالفخر ويوافق ذلك هواه

يشعر أنه الملك لتلك الأرض..

لم يكتشف أنه عوضًا عن أن ينظر إلى السماء كي يمسك ببابها كان ينظر إلى الأرض كي يتوج نفسه على إمارتها..

وظن أن ذلك الشعور هو السعادة الحقيقية..

لذلك لم يرَ الإعصار وهو يحمله بعيدًا عن باب السماء.. يحمله بعيدًا بعيدًا.. وفجأة يتوقف فيقع من أعلى نقطة فوق الأرض فتتحطم عظامه..

حينها أمطرت السماء.. ومع بقايا غبار الإعصار فوق رأسه كان المطر يتحول إلى طين وهو يلامس جسده طينًا موجعًا..
والغريب أنه على الرغم من أنه مات فإنه كان يشعر بالألم.

رحلة البحث عن السعادة

ذهب الحلم في يوم من الأيام لصديقيه الخير والجمال وكان الحلم حزينًا جدًّا..

الحلم: إنني أبحث عن معشوقتي السعادة.. فلم أرَها منذ فترة.. وكلما بحثت عنها لم أجدها فهل رأيتماها؟

الجمال: من السعادة التي تتحدث عنها؟

الحلم: هي معشوقتي التي جمعت بين نقاء وجهك أيها الجمال وصفاء قلبك أيها الخير.. هي التي وصلت لدرجة الكمال من صفاتكما.. هي حبيبتي ومعشوقتي..

الخير: وأين ذهبت؟

الحلم: لا أعلم.. هل ستأتيان لتبحثا معي؟

وبدأ الثلاثة رحلة البحث عن السعادة.. كان الخير والجمال يتمنيان أن يريا تلك الفتاة التي جمعت بين صفاتهما الحميدة.. وكان الحلم يتمنى الوصول لمعشوقته.. وفي رحلتهم قابلوا

الواقع.. وهو شخص دميم الوجه سألوه عن السعادة.. في بداية الأمر تلجلج.. فهو يعرف أين ذهبت.. لقد رآها بالأمس وأُعجب بها وأراد أن يتزوجها.. لكنها قالت إنها تحب الحلم.. ورفضت الزواج من الواقع.. فاستشاط الواقع غضبًا وكان الواقع غير حكيم.. فهو لا يتحكم أبدًا في غضبه.. فقتلها ودفنها بجوار منزله..

وحينما سألوه حاول أن يوضح لهم أنه لا يعرفها فقال لهم: أوَتعرفونها؟

الخير: هي معشوقة صديقنا الحلم.. وهي تملك صفاء القلب ونقاء الوجه..

هنا تنبه الواقع لوجود الحلم وتذكر أنه هو الذي فضلته السعادة عليه.. تذكر أن هذا الحلم هو من تسبب في جريمته بالأمس.. لو لم تكن تحب الحلم لما قتلها.. زادت كراهيته للحلم..

سأل الواقع الحلم: هل معك صورة لها؟

الحلم: نعم أحفظ ملامحها في عقلي.. لو منحتني قليلاً من الوقت لرسمتها لك..

الواقع: حسنًا فلنذهب إلى بيتي أنت ترسمها وأنا أحضر

بعض الأدوات التي سنحتاجها في البحث عنها ولتنتظرانا أيها الصديقان العزيزان هنا (كان يقصد الخير والجمال)..

ذهب الواقع والحلم لبيت الواقع.. وهناك رسم الحلم صورة حبيبته فأبرز جمالها وأوضح بهاء صورتها.. فاستشاط الواقع غضبًا؛ لأنه حتى لو كان يحبها لما رسمها بتلك الفرشاة الرائعة التي رسم بها الحلم.. زادت كراهية الواقع للحلم أكثر وأكثر ولم يدرِ بنفسه إلا وعنق الحلم بين قبضتيه يزيد الضغط عليها حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وحمل الواقعُ القتيلَ ودفنه في نفس قبر معشوقته واجتمع الحبيبان.. لكن تحت التراب..

عاد الواقع للخير والجمال وقال لهما: إن الحلم قد استغرق في النوم لأنه كان مرهقًا جدًّا من ليلة البحث والحزن الطويلة فلنبدأ نحن في البحث عن السعادة حتى إن استيقظ وجد محبوبته أمامه..

قال الصديقان الطيبان: فكرة سديدة أيها الواقع الطيب.. هيا بنا..

واستؤنفت رحلة البحث الطويلة جدًّا عن السعادة.. كان الواقع يعرف جيدًا أن وجود السعادة في هذا العالم مستحيل.. إنما

هي في عالم آخر وتحت التراب..

كان الصديقان الطيبان كلما رأيا فتاة تبهجهما ظنا أنها السعادة.. لكن بعد قليل يتبين لهما أن هذه الفتاة لا تصل لدرجة الكمال.. وكانا كلما سألا الواقع عن الحلم كان يقول لهما بالتأكيد هو يبحث عن السعادة وذهب من طريق آخر وتاه عنَّا..

قال الخير للواقع: هل تتوقع أن يكون الحلم قد وجد السعادة؟

قال الواقع: أعتقد أنه قد وجدها..

الساعة الآن صفر

تيك توك.. الساعة الآن التاسعة.. حان الآن موجز الأنباء.. استخدمت الولايات المتحدة حق الفيتو لرفض مشروع مجلس الأمن لإدانة المستوطنات الإسرائيلية..

كالعادة وحيدًا أقود سيارتي في طريقي للعاصمة.. وعلى الرغم من أن الطريق طويل فإنني صممت أن أذهب إلى العاصمة بسيارتي.. فأنا لست مجنونًا حتى أدع حياتي في قبضة سائق قطار أو أوتوبيس.. بل أنا دائمًا أحب أن أصوغ حياتي كما أريد..

أنا القائد الذي يقود حياتي.. والظروف والعواطف وكل ما حولي هي مجرد خلفية للوحة أنا بطلها..

لكنني وحدي دائمًا..

طلبت من مرءوسيَّ أن يأتي أحدهم معي للعاصمة.. لكنهم رفضوا وتحججوا بحجج واهية لأقوم بتلك الرحلة وحيدًا كعادتي..

هل أنا لا أطاق لتلك الدرجة؟

ربما كنت جافًّا.. ربما كنت حادًا.. لكنني بشر.. لماذا لم يكن لي أصدقاء على مدار حياتي؟

غريب هذا الأمر.. فهذه أول مرة أواجه نفسي بتلك الأسئلة.. ربما لأنني لم أجد وقتًا فارغًا في حياتي مثل ذلك الوقت.. فأنا دومًا أبحث عن أن أرتقي سريعًا في عملي بكل السبل وكل الطرق..

رحلة بلا رفيق.. ما عدا أسئلة تافهة هي من ترافقني وإحساس بالوحدة يعتريني وظلام الليل يذكرني بغرفات عقلي المظلمة التي لم أستطع أن أدخلها من قبل..

تيك توك.. الساعة الآن العاشرة.. حان الآن موجز الأنباء.. استخدمت الولايات المتحدة حق الفيتو لرفض مشروع مجلس الأمن لإدانة المستوطنات الإسرائيلية..

– أبي.. لا أريد كلية الهندسة.. بل أريد أن أكون ضابطًا..

– بل ستكون مهندسًا.. هكذا أردتك وهكذا ستكون.. سواء شئت أم أبيت..

وبالفعل أصبحت مهندسًا..

غرامي في أن أكون ضابطًا ليس حبًّا في نشر الأمن في البلاد.. لكنني أهوى دومًا أن آمر وأتسلط..

كم هو رائع ذلك الإحساس حين تطلب طلبًا وتجد الجميع يريدون تنفيذه قائلين إن مجرد أحلامي أوامر..

لكن أبي كان كذلك.. هكذا أمرني وهكذا نفذت وأصبح حلمه في أن أكون مهندسًا أمرًا..

إنني حقًّا ابن أبي..

إلامَ كانت تشير تلك اللافتة التي مررت بها؟ إنه مفترق طرق.. لكنني لن أعود لأرى إشارة اللافتة.. فهكذا تعلمت أن أسير دومًا في أي طريق أختاره ولا أعود للخلف مهما كانت العواقب..

وفي النهاية كل الطرق ستؤدي إلى روما..

ولا يوجد مثلي خبير في مسالك الطرق.. فأنا أعظم مهندس طرق في العالم يعرف كيف يحيل أي طريق لمصلحته ولا يهم إن كانت الطرق ملتوية أو مستقيمة..

تيك توك.. الساعة الآن الحادية عشرة.. حان الآن موجز الأنباء.. استخدمت الولايات المتحدة حق الفيتو لرفض مشروع

مجلس الأمن لإدانة المستوطنات الإسرائيلية..

أليس هذا الخبر نفسه الذي يعيدونه دومًا؟ إن هذا المذياع لا يمل تكرار الأخبار.. لكنني أمل سماعها..

بل لا أمل سماعها.. فصوتها الرائق الدافئ كل صباح كي توقظني كان يحمل لي شعلة الحيوية في يوم أعلم أنه روتيني..

عيناها الجميلتان بحر بلا شطآن لا مفر من الغرق فيهما..

آآآآآآآآآه كم أهواها..

لماذا تركتِني يا نور عيني؟

لماذا طلبتِ الطلاق؟

قالت عني إنني متسلط وإنني لا أسمع لها أبدًا ولا أدع لها مجالاً للمناقشة.. أما يكفيكِ أنك تملكين ذلك العقل الذي أفكر به وأتخذ قراراته؟

قالت إنني أمحو شخصيتها وأعتبرها كائنًا مهمشًا في حياتي.. وما معنى الشخصية بين زوجين امتزجا في كائن واحد؟

كيف أكذب على نفسي في لحظات الصفاء؟ هذه نعم.. هي محقة.. نعم أنا نادم..

نعم فهي عندما طلبت الطلاق لم أراجعها حتى في قرارها..

فغروري لم يفهمني معنى كلمة آسف.. نطقت بالكلمة بكل سهولة كأنها لا تعنيني..

آآآآآآآآآه..

الآن أيتها الدموع تتساقطين بعد أن ضاع العمر وضاعت مني!

دموعي تغرق وجهي وتشوش رؤيتي لا أرى الطريق جيدًا..

كيف لا أرى الطريق جيدًا وأنا خبير في مسالك الطرق؟!

دموعي تنساب بغزارة على ما اقترفته طوال حياتي..

وذكرياتي تعترينني من كل جانب لا أرى طريقي..

هل هذه شجرة؟

تيك توك.. الساعة الآن صفر.. حان الآن وقت الحساب..

لوحة فوضوية

في مرسمه ترك جماح نفسه وأيقظ بداخله كل ما فيها..

أتى بكل ألوانه ولطخ بها لوحته.. بعثر الألوان بفوضوية فوق اللوحة..

وضع اللوحة في مقدمة معرضه..

نظر الناس إليها بغرابة.. بعضهم قال: إن صاحب هذه اللوحة متفائل.. البعض قال: متشائم.. البعض قال: طامح.. البعض قال: ميت.. والبعض قال: صاحبها مجرد بشر..

رسالة بحر

أخرج ورقة بيضاء وكتب فيها أنا تائه من دونك..

وضع الورقة في زجاجة وألقاها في البحر..

بعد قليل رأى البحر يحمل زجاجة أخرجها وجد فيها رسالة تقول: فقط ألقِ نفسك في البحر والبحر يعرف طريقه إليَّ.

ذوبان الكلمات

أخرجت الخطابات التي طالما ظلت تقرؤها أيامًا وشهورًا ثم أخرجت من حقيبتها تلك الزجاجة التي تحتوي على الحامض..

في البداية كانت تتأمل الخطابات بحسرة.. وظلت وقتًا تفكر وتنتظر.. لا تقوى أن تفعل ذلك التصرف الذي ربما تصف نفسها به فيما بعدُ بالحماقة.. لم تجد الشجاعة والجرأة أن تطمس بيدها آخر خيط يجمعهما وهي تلك الخطابات..

فتحت أول الخطابات وكانت تقرأ والدموع متحجرة في عينيها.. حبيبتي كم أحبك..

لا.. إنها لا تقوى على فعل ذلك.. إنها محاولة أشبه بالانتحار.. قتل آخر جزء يغض بالحياة في قلبها.. لكنها تذكرت ماذا فعل وأنها لن تقوى أن تعيش باقي حياتها في ذلك الوهم..

لكن هذا الوهم هو أجمل ما تحمله من تلك الحياة.. هو آخر وسيلة ترفيه لها.. أن تغرق في بحر الذكريات وتنسى كل ما حدث منه..

لكن ذلك الوهم هو سجنها الكبير.. ويجب أن ينتهي ويجب أن تتحرر..

أخرجت زجاجة الحامض وظلت تقطر على الكلمات كلمةً كلمة وهي تقرأ أحبك أكثر من نفسي.. وتلمح الحامض وهو يذيب تلك الكلمات وتتذكر كيف كان قلبها يذوب حين تقرأ أو تسمع منه ذلك فتنهمر عيناها بالدمع.. الدمع الذي يندمج مع قطرات الحامض فتذيب تلك الكلمات..

تلك الكلمات التي ظنت هي وهو أنها ستظل صامدة طويلاً أمام تقلبات الزمن وشدائد المحن.. تلك الكلمات التي ستظل كالجبال أمام الرياح العاتية..

لكن تلك الكلمات سقطت بكل سهولة..

شريط ذكرياتها يمر أمامها ويندمج مع ذوبان الكلمات وهي تقرأ منه أغنية كاظم التي كتبها في أحد خطاباته.. كلماتنا في الحب تقتل حبنا.. إن الحروف تموت حين تقال..

تذكرت كيف كان معها يحاورها ويصف لها حبه وكان يقول لها دومًا: حبي لكِ أقوى من كل الكلمات.. لا تصفه أحرف..

ولا يقوى أكبر المعاجم على إخراج مادة حبك..

هل كان يكذب عليها؟ بالقطع لا.. هي كانت تشعر بصدقه.. وحتى الآن كلما تتذكر ذلك كانت تشعر بصدقه.. لا يمكن أن يكون كاذبًا..

كانت قصة حب عنيفة..

نعم عنيفة بكل ما تحمل الكلمة من معنى الحب لدرجة الذوبان والنشوى.. وفي إحدى المرات التي استيقظت فيها من نشوتها سألته: يا حبيبي وماذا بعد؟

قال: أنتِ تعلمين ظروفي.. لم أخدعك.. أنتِ تعلمين دخلي المادي وتعلمين صعوبة أن أحسنه داخل ذلك البلد.. فعليَّ أن أسافر.. فهل ستنتظرينني؟

– إلى نهاية العمر..

– أتعدينني بذلك..

– نعم.. إلى نهاية العمر..

وتشابكت الأيدي واندمجت..

وظل يراسلها في أول فترة سفره واستقراره في ذلك البلد..

وبعد فترة انقطعت الرسائل.. كانت قد قاربت من الجنون.. القلق يعصف بها..

حاولت أن تسأل عنه كل من تعرف.. وأخيرًا وصل إليها الخبر المشئوم..

لقد تزوج..

نعم.. لقد تزوج ابنة رجل أعمال كصفقة تجارية ضمن تلك الصفقات التي تعج بها حياتنا دون أن ندري..

كيف سمح لنفسه أن يفعل ذلك؟ ألم نتبادل الوعود؟ هل كان حبنا مجرد وهم؟

كلا.. أنا أعلم أن حبنا كان حقيقة.. أشعر بذلك وشعوري هو الشيء الوحيد الذي وثقت به وسأثق به.. لكن ماذا حدث؟

إنه تقلب القلوب..

نعم.. ألسنا ندعو: اللهم ثبت قلوبنا على دينك؟ فلو كانت القلوب تتقلب في الدين فما بال حبنا؟

لماذا ضعف حبه لي وضمر؟

وماذا أفعل؟

لماذا لا يتقلب قلبي مثله؟ لماذا لا أستطيع أن أكرهه؟ لماذا ما زلت أبرر تصرفه هذا بكافة السبل؟

لا أستطيع أن أتوقف عن البكاء.. دموعي ما زالت تندمج مع الحامض على الخطاب.. الكلمات تذوب سريعًا من الورقة.. لكنها ما زالت محفورة في قلبي..

نعم.. قلبي الذي كانت تحسده كل بساتين الدنيا قديمًا لأنه كان كل يوم تنمو فيه زهرة.. اليوم صار إحدى الغابات المتحجرة الشاهدة على تطور قصة حبي له.. محفورة في كل شجرة في تلك الغابة البالية كلماته الخالدة فيها..

كلماته تذوب وتذوب.. ومن بين الدموع الكثيرة أكاد أرى كلماته التي يقول فيها: سيظل حبنا خالدًا فأنا بنيت لكِ في قلبي قلعة كبيرة كالأهرامات لا تستطيع زلازل العالم كله أن تقوض أساسها..

وبينما قطرات الحامض تذيب هذه الكلمات علت شفتيها بسمة باهتة والدموع ما زالت تنهمر بحرقة لتشكل لوحة سريالية تحمل كل المتناقضات..

كوب شاي

بصمت مطبق كانت تعد له كوب الشاي الذي تعودت أن تعده له طوال سنين زواجهما الماضية..

كانت تلاحظ ذوبان حبيبات السكر بداخل كوب الشاي.. تذكرت كيف امتزج هو بحياتها سريعًا كحبيبات السكر التي جعلت للشاي طعمًا مستساغًا حلو المذاق..

تذكرت فرحتها في كل وقت يقول لها كلمة غزل فتطير مبتهجة.. حقًّا إن لحياتها معه مذاقًا لا ينكره إلا جاحد..

قبله كانت كالشاي من دون سكر.. طعمه لا يطاق..

لكن بعد ذلك أصبحت حياتها معه نمطية يواجهان مشكلات الحياة يوميًّا.. ويومًا بعد يوم تأخذهما الحياة عن دنيا الأحلام التي كانوا يعيشون فيها..

يومًا بعد يوم أصبحت حياتهما روتينًا.. فاللسان حين يتذوق الطعم الحلو ويستسيغه لا يشعر بحلاوة المذاق مع تعدد

الرشفات وتصبح كل الرشفات سواء..

والآن بعد مرور السنين لم يصبح بينهما إلا صرخات الصمت بعد أن اندثرت لغة الحوار خلف جدران الصمت.. كلما نظرت إليه كانت تصرخ: أين أنت؟ صرخة لا تمر من قلبها للسانها.. صرخة لا تفارق عقلها.. وفي كل مرة صرخاتها لا تجاب.. فقط صدى السكون هو من يجيب.. وتمر الأيام عليها في مرارة الرشفة الأخيرة من الكوب..

قدمت له كوب الشاي وجلست على مقربة منه تراقبه وهو يحتسي الشاي بصمت..

نافذة لها قضبان

أدري إن كان يجب أن أكتب ما سأكتبه أو أنه ملكي وحدي لا يجب أن يقرأه أحد.. لكنني سأكتبه حتى أثبت لنفسي أنني كنت موجودًا هنا في يوم من الأيام.. فأنا أشعر أنني لست حيًّا وأن ما يتبقى مني مجرد حطام وأشلاء تنثرها ريح قوية فلا وجود حقيقيًّا لي..

حتى إنني لا أعرف من أنا..

فذلك سؤال أعجز عن إجابته.. هل أنا ابتسامة طفل أم نظرة ماكر أم قلب محب أم عقل مخادع أم لسان منافق؟

تعترينى كثير من الأحزان.. ومع ذلك أبتسم وأضحك.. هل أنا منافق متعدد الوجوه أضحك وبداخلي أحزان عميقة؟ هل أنا ممثل كوميدي في مسرحية تراجيدية؟ هل ضحكاتي مثل ضحكات مهرج الملك أو عبيط القرية؟ لكن مهرج الملك يضحك من أجل المال.. وعبيط القرية يضحك ضحكات لا إرادية لا يتحكم في أفعاله.. أما أنا

فأضحك بإرادتي دون البحث عن المال على الرغم من أن بداخلي بركانًا من الغضب وصخورًا ناتئة من الضيق..

قلبي.. ذلك العضو المجهول بالنسبة إليَّ.. لا أفهمه ولا أعرف لماذا ينبض..

حقيقة أصبحت لا أعلم شيئًا.. تتقلبني الخواطر وتعتصرني الهواجس وأنا بينها أسبح في بحر من الأفكار.. أشعر أنني تائه في متاهة لا أعرف طريقي بها.. متاهة دخلتُها بقدمي ولا أعرف إن كنت أستطيع الخروج منها..

سأفعل كما يفعلون في الأفلام.. سأدع قلمي يرسم دون تدخل مني.. ربما رسم شيئًا أعرف منه من أنا..

شرعت في الرسم فرسمت عينين متقدتين تدلان على الذكاء.. وابتسامة بريئة تدل على الطيبة.. إنه طفل رائع رسمته خلف قضبان.. ليست قضبان سجن.. بل إنها نافذة..

نعم.. طفل يبتسم من خلف قضبان النافذة وهو ينظر بفضول للشارع الكبير..

لا أعرف ماذا يعني ذلك.. لكنني أشعر أنني غارق في بحر

من الأفكار.. موج الأفكار يتزايد وأنا فيه أصارع من أجل البقاء.. أشعر بالاختناق.. أقاوم الغرق بصعوبة.. أبحث عن قشة فيها نجدتي..

أرى نظرات الذعر على الطفل..

يمد يده من بين القضبان في اتجاهي.. لكن القضبان تمنعه من الوصول إليَّ.. ولا أستطيع الإمساك بها للنجاة.. حتى إن أمسكتها كيف يستطيع إنقاذي؟

أشعر بالاختناق.. إنني أغرق في بحور لا أدري لها نهاية.. شعور غريب أن تشعر بأنك مجرد أشلاء غارقة.. أن تشعر أنك غير موجود.. ومع ذلك تشعر بالاختناق.. أن تشعر باليأس وتعلق كل آمالك على طفل صغير متوارٍ خلف قضبان من حديد في نافذة الحياة القديمة..

أشعر أنني فارقت الحياة.. وأن أنفاسي قد توقفت.. وقلبي صمت عن نبضه.. ببساطة أشعر أنني ميت..

لم يقطع أفكاري الجنونية إلا صوت المؤذن وهو يقول: الله أكبر.. عندها علمت أنني ما زلت أحيا..

سقوط شهاب

كعادتها كل ليلة تنظر إلى السماء من نافذتها المطلة على شارع الحياة..

تناجي ذلك النجم البعيد.. تخبره عما يجول بخاطرها..

تحدثه بمجريات يومها كل ليلة بلا ملل..

كان ذلك النجم رفيقها الوحيد في الحياة..

وكل ما تعرفه عن الحياة هو تلك النافذة التي لا تتعداها فتمتزج بالحياة..

لكنها تظل مجرد نافذة ترى منها الحياة وتحيا من خلالها الأحلام..

أحلام فتاة ترى الحياة بمنظار حالم..

كل يوم تبث حلمًا جديدًا للنجم..

حلم من ينتزعها من تلك الحياة التي لا تمتزج بها ولا تستطيع أن تقتحمها..

تمنت ذات ليلة أن يتكلم النجم ويقول لها ما يشعر به..

لدهشتها شعرت كأن النجم مقبل في اتجاهها.. إنه يكبر ويكبر..

هل من الممكن أن تتحقق أمنية ساذجة مثل تلك الأمنية؟

لا تعلم.. فقط هو مقبل..

ما هذا؟

إنه ليس نجمًا عاديًّا.. بل إنه رجل يمتطي فرسًا ذا أجنحة..

يطير مقبلاً نحو نافذتها حاملاً إياها بين ذراعيه..

يطير بين الأرض والسماء يبهرها بالمشاهد الخلابة..

نظرت إليه بعشق تتساءل هل هو حقًّا رفيقها الذي تحدثه كل ليلة.. هل هو حقًّا من يستمع إليها صامتًا..

فيومئ برأسه أنه هو..

هو من يراقبها كل ليلة من على بُعد السنين الضوئية..

يستمع إليها دون أن تتحدث.. يناجيها دون أن تسمع..

إنه هو..

كم هو يعشقها.. فهي من آمنت بوجوده وأيقنت أنه حي..

إذًا لا تتركني.. هكذا قالت..

– لكن مكاني بالسماء وأنت حياتك بالأرض..

– أرجوك..

حين سمع كلمة أرجوك من أحب المخلوقات إليه قرر أن يفعل المستحيل كي يأتي إليها..

وضع أنامله على وجنتيها يداعبها..

فأغمضت عينيها حين شعرت بالسعادة..

وفتحت عينيها فلم تجده بجوارها..

هل كان حلمًا؟

يا له من حلم رائع تمنت لو كان حقيقة..

لدهشتها رأت النجم مقبلاً من السماء فبريقه يزداد ويزداد مخلفًا ذيلاً ناريًّا..

هل هو يحترق؟

لكنه مقبل بقوة في اتجاهها..

وتحت نافذتها كان مصيره إلى رماد..

في لوعة جرت في اتجاه سقوطه.. جمعت الرماد المتبقي منه.. وضعته في إناء زجاجي وجلست تبكي..

هل تسمعني؟ كنت تسمعني وأنت على بُعد آلاف السنين الضوئية.. فهل تستمع إليَّ الآن وأنا بجوارك؟ هل تعرف أنك كل ما أملك.. وكل الحياة؟

أجبني.. لا تدعني أحيا الوهم والشكوك فأنا من دونك مثلك مجرد رماد.

شتاء عاصف

كانت تحدثني أن الشتاء مهما كانت قوة عواصفه وأعاصيره..

مهما كانت أمطاره وصقيعه..

ومهما كانت رياحه وسيوله..

سيمر..

وسيأتي ربيع جديد تغرد فيه الطيور فرِحة بموسم التزاوج..

تزهر فيه الأشجار..

وتزهو فيه الورود..

وتبتسم فيه السماء بعد غياب شهور خلف سحب كثيفة..

كانت تحدثني عن الربيع.. إنه حياة بعد موت..

وبعث بعد ضياع..

وإعمار بعد دمار..

كانت تحدثني أن الربيع حين يأتي تتطاير الفراشات الزاهية فوق الورود محدثة ثورة من الألوان البراقة في لوحة الحياة الصافية..

كانت تحدثني أن الربيع حين يأتي فإن العصفور الأخضر سيهمس في أذن العصفورة الخضراء قائلاً إن الحياة من دونك كالموت الأسود..

كانت تحدثني أن بعد كل شتاء سيولد ربيع جديد.. فهذه سنة الحياة..

ورحلت..

رحلت في الشتاء فانتظرت أن يأتي الربيع الذي أملتني به..

أيام وأعوام تمر أنتظر الربيع كي يأتي بعد الشتاء..

فلا يأتي أبدًا..

إنما بعد كل شتاء يولد خريف جديد..

تجف فيه الأوراق وتتساقط.. تتحلل في تربة يابسة..

تماما كأوراقي تتساقط مع الأيام ورقة بعد أخرى.. تتحلل

في تربة الزمن دون أن أشعر..

أنتظر الموت بصمت فيزورني الموت كل ليلة ناظرًا لي قائلاً: لا ليس الآن.. وأسمع ضحكاته الساخرة ويتركني مكبلاً في عذابي ويرحل..

كانت تحدثني أن بعد كل شتاء ربيعًا..

لكنني اكتشفت أن ما تأخذه عواصف الشتاء لا تعيده نسمات الربيع.

عقد الياسمين

– أعطني مما أعطاك الله..

هذا الصوت الأنثوي انتزع شاكر بيه من تفكيره الطويل في أسرته المفككة.. فهو وزوجته كثيرا الشجار.. لا يدخل البيت إلا وتكون هناك مشاجرة عظيمة على أسباب تافهة.. وهو يخاف على شركته كثيرًا وتحمل كل همومه.. فلا تمر ثانية إلا والقلق يتملكه عليها..

استحوذت هذه الأفكار كلها على تأملاته كل بينما هو داخل سيارته الفارهة ينتظر الإشارة الخضراء للمرور..

نظر إلى تلك الفتاة باستغراب.. فهي كانت فتاة تمسك في يدها ببعض عقود الياسمين الذابلة تتسول في الإشارة..

– هل أنت جادة؟ حقًّا تودين أن أعطيك مما أعطاني الله؟

– نعم يا سيدي..

– حسنًا.. اللهم أعطِها مما أعطيتني..

ثم ابتعد بسيارته بعيدًا دون أن يعطيها قرشًا.. فقط دعا هذا الدعاء الذي لم يقصد به المال بقدر ما قصد به التعاسة والضيق..

ذهبت بائعة الياسمين تبحث بين البشر عمَّن يعطيها ما يسد جوعها.. فالناس هذه الأيام لم تعد تشتري الياسمين.. وجدت على طرف عينيها شابًّا وفتاة من أول وهلة عرفت أنهما حبيبان فهما يتبادلان نظرات الهيام.. كما أن رائحة الحب صارت قوية في المكان وأقوى من رائحة الياسمين الذي تبيعه..

اقتربت منهما أكثر.. كانت لا تريد أن تقطع ذلك الوصال بينهما.. لكنها وجدت نفسها لا إراديًّا تخاطب الشاب قائلة: أعطني مما أعطاك الله..

لم يسمع الشاب أولاً حديثها.. فأذنه لا تعرف إلا صوتًا واحدًا.. وعيناه لا ترى إلا شخصًا واحدًا.. لكن بعد أن كررت بائعة الياسمين طلبها وضع الشاب يده في جيبه وأخرج ورقة نقود لم ينظر إليها.. فقط أعطاها لبائعة الياسمين..

ذُهلت بائعة الياسمين.. فهذه الورقة كانت بقيمة مائتي جنيه.. حاولت أن تنبه الشاب.. إلا أنه أشار لها أن تبتعد عنه وأن

تصمت.. فـ"عابد" قد تعوَّد طيلة عمره أن ينفق بيمينه ما لا تعرفه شماله.. تعوَّد دومًا أن يضع يديه في جيبه ويتصدق بها دون أن يرى ماذا تخرج.. لكن في الماضي لم يكن قد تم اختراع تلك الورقة النقدية ذات المائتي جنيه.. وهيامه بخطيبته أنساه أن يتذكر أنه لا يملك غير تلك الورقة في الوقت الحالي..

في حين ذهبت بائعة الياسمين بعيدًا سعيدة تحمل المال الوفير..

عاد عابد إلى منزله ليكتشف ما فعل.. لقد تصدق بكل ما تبقى من مرتبه ولا يعرف ماذا يفعل باقي الشهر.. كما أنه مُطالَب بشراء بعض الأشياء تجهيزًا لزواجه.. عندما ذهب عابد لمقر عمله حاول أن يستعير من أصدقائه ما يعوله.. لكن حال الموظفين بمصر يجعل من المرتب بالكاد يكفي صاحبه.. لذلك رفضوا..

لم يجد أمامه غير مدير الشركة شاكر بيه.. سيرجوه أن يوافق له على سلفة..

لكن شاكر بيه – كما رأينا في بداية القصة – إنسان قاسي القلب دومًا لا يرى إلا الجانب السيئ من البشر لا يعرف معنى

الجمال.. لذلك قال لعابد: أين ذهب مرتبك؟

ارتبك عابد في البداية.. فهو لا يحب أن يقول تصدقت به حتى لا تقع نفسه في دائرة الرياء.. لكنه قال: فقدته..

شاكر: من يفقد ماله إنسان مستهتر لا يستطيع الحفاظ على عمله..

وطرده من العمل.. وحين علم أهل خطيبته أنه فقد عمله فسخوا الخطبة..

وهكذا في ليلة واحدة فقد عابد كل ماله وعمله وخطيبته.. لم يجد أمامه إلا الله..

رفع يديه إلى السماء قائلاً: ربي أهكذا يكون جزائي لأنني فعلت ما تحب؟ أهذا جزاء من تصدق بيمينه ما لم تعلمه شماله؟ أهذا جزاء من فرَّج كربة من كرب الدنيا عن أحد عبادك؟

بينما هو يعاتب ربَّه اكتشف أنه يفعل جريمة شنعاء في حق ربه.. لذلك استغفر لذنبه.. بل أقسم إنه لن يدع أي نَفَس يدخل جوفه إلا وقلبه يقول أستغفر الله حتى يغفر الله له.. ذلك في أوقات الفراغ كتلك التي يحياها.. بعد أن فقد عمله قويت صلته بربه..

صار قارئًا للقرآن مصليًّا متعبدًا.. وأهم من ذلك كان يشعر بأنوار الحق تنير قلبه..

بينما كانت بائعة الياسمين حين حصلت على المائتي جنيه جالسة لا تعلم ماذا تفعل بها.. فهي لم تمسك من قبلُ بورقة مثل تلك.. لذلك شعرت برهبة تجاهها وقررت عدم صرفها.. ذهبت إلى المكان نفسه كي تتسول كعادتها.. وجدت خطيبة عابد السابقة وهي واجمة تنظر إلى النيل شزرة سألتها عن عابد فأخبرتها خطيبته بما حدث..

وجدت بائعة الياسمين قدميها تسوقانها إلى عابد..

حاولت أن تعطيه المال.. لكن يدها التي كانت تتعود دائمًا أن تأخذ المال تجد صعوبة في محاولة إعطائه.. لكنها تحاملت على نفسها وأخرجت المائتي جنيه..

– تفضل مالك.. لقد قصت عليَّ خطيبتك ما حدث.. أنت أولى بمالك..

– كلا والله لن آخذه.. إني وهبته لله وأستحيي من الله أن أرجعه..

تحت إصراره العظيم لم تجد بائعة الياسمين طريقًا لإقناعه بأخذ المال.. كانت تفكر هل هناك حقًّا مثل ذلك الرجل في تلك الحياة الذي يهب لله كل ما يملك ولا يخاف جوعًا..

أخرجت عقدًا من الياسمين الذابل قائلة: حسنًا.. فلتقبل هديتي إذًا.. وضعت العقد على المنضدة وخرجت..

كان الأمر في حد ذاته غريبًا عليها.. هي من كانت تأخذ طوال حياتها ولم تعطِ.. أن تجد هناك من يعطي ولا ينتظر المقابل إلا من الله..

قادها تفكيرها إلى أنها يجب عليها استثمار تلك المائتي جنيه فمن يحمل مثل قلب عابد فهو ذو مال مبارك.. وبالفعل اشترت بضاعة بالمائتي جنيه وباعتها ولدهشتها كانت البضاعة تباع بسرعة وتدر مالاً وفيرًا.. ودارت عجلة المال لديها.. صار عندها محل للملابس.. ثم أصبحت سلسلة محال وأصبحت من الأثرياء.. لقد كان مالاً باركه الله حقًّا..

* * *

يقال إن شاكر – الذي لم يكن شاكرًا أبدًا – أصابته ضغوط

الحياة بالإحباط والاكتئاب.. ذهب لطبيب نفسي كي يقوم على علاجه.. فشعوره بالخوف والرعب من الغد مربع.. يخاف على شركته ولا يجد الراحة في بيته أو مع نفسه..

نصحه الطبيب بأن يغير مناخ حياته ويأخذ إجازة يذهب فيها بعيدًا.. وبالفعل أخذ زوجته وسافر إلى الساحل الشمالي ليقضي بعض الوقت بعيدًا عن الضغوط..

حين رأى البحر قرر النزول محاولاً أن يغسل قلبه من الهموم والسواد فألقى نفسه في الماء وسبح بعيدًا عن الشاطئ.. جرفته موجة عاتية بعيدًا.. حاول البعض أن ينقذه.. لكن حين رأوا الموجة المرتفعة خافوا على أنفسهم بينما زوجته تنظر نظرة لا مبالية بما قد يحدث له..

يقال إنه حتى الآن لم يجدوا جثة شاكر ولم يعرفوا إلى أين انجرفت.. هذا ما يقال وليس كل ما يقال قابلاً للتصديق..

* * *

يقال إن خطيبة عابد بعد أعوام تزوجت..

في البداية كانت رافضة للفكرة.. فهي تهوى عابد ولا تقنع

نفسها أبدًا أنها قد تتزوج من غيره..

لكنها سُنة الحياة التي قضت أن يفترقا.. لذلك تزوجت.. في البداية لم تكن تحب زوجها.. لكنها حين عاشرته أحبته.. فهو إنسان طيب يراعي حق الله فيها وقد أنساها قليلاً حبها لعابد.. ويقال إنها أنجبت ولدًا وبنتًا.. هذا ما يقال وليس كل ما يقال قابلاً للتصديق..

* * *

يقال إن بائعة الياسمين أيضًا تزوجت من رجل أعمال ثري وكان مهرها الذي طلبته هو كل شركات شاكر بيه.. فاشتراها لها زوجها من المزاد بعد أن تأخرت زوجة شاكر في سداد القروض..

ويقال أيضًا إن بائعة الياسمين كانت تحتفظ بنصف أرباحها بعيدًا عن الأعين فلا تقوم بصرفها.. وكانت كل فترة تذهب إلى عابد فتعرضها عليه وتطلب منه أن يأخذها.. فهو كان صاحب رأس المال ومن حقه نصف الأرباح.. لكن في كل مرة كان يرفض.. وفي آخر مرة هتف بها: لقد وهبتها لله.. ألا تفهمين معنى تلك الجملة؟

فكرت بائعة الياسمين ماذا تفعل.. فهي ترفض المساس بتلك الأموال.. لذلك بتلك الأموال التي رفضها عابد قامت بتشييد

مستشفى خيري يقوم بالكشف والعلاج مجانًا.. وكتبت لافتة على باب المستشفى: (فيزيتا العلاج هي فقط أن تدعو لصاحب المستشفى ولبائعة الياسمين بالسعادة) وابتسمت بعد أن وضعت اللافتة.. فهي ما زالت تتسول حتى الدعوات التي تظن أنها ليست من حقها..

سألها زوجها: من صاحب المستشفى؟ فقالت له: إنه شريكي في كل أموالي ويرفض أن يأخذ أرباحه وحفظتها له..

قال الزوج: إنك ملاك يا حبيبتي وقلبك هو أنبل القلوب..

ابتسمت بائعة الياسمين.. فقد تحققت دعوة شاكر بيه وأعطاها الله ما عند شاكر إلا قلبه..

هذا ما كان يقال ولكن ليس كل ما يقال قابلاً للتصديق..

* * *

ويقال أيضًا إن عابد قد وجد عملاً عند رجل طيب قد يكون هذا العمل لا يناسب مؤهلاته العلمية.. لكنه عمل شريف أحبه عابد..

وحين رأى صاحب العمل أخلاق عابد وتقواه وحرصه وخوفه على العمل قرر أن يزوجه ابنته.. فالصالحون من الناس يبحثون دومًا عمن يتقي الله في بناتهم.. لا يبحثون عن مال أو جاه..

عرض صاحب العمل صراحة على عابد أن يزوجه ابنته فوافق عابد.. فهو يعلم صلاح الرجل..

وحين يجتمع الصلاح مع الرضا فالنتيجة تكون الخير كله..

استخلص الله عابد لعبادته فرزقه السعادة والتقوى..

يقال إن الله وهب عابد ولدين سماهما رضا وسعيد.. ويقال أيضًا إن عابد أقسم إن هذين الولدين سيكون لهما شأن عظيم..

وحين يسأله الناس: كيف تقسم على شيء لا تعلمه وهو من الغيب؟ كان يرد قائلاً: أعلم أن ربي لن يخيب ظني..

هذا ما كان يقال وليس كل ما يقال قابلاً للتصديق..

* * *

يقال أيضًا إن شقة عابد على الرغم من مرور أعوام طويلة على تلك القصة ما زالت تفوح منها رائحة الياسمين.. على الرغم من أنه لا يوجد بداخلها إلا عقد ياسمين ذابل معلق على الجدار..

كيف يفوح منه ذلك العطر كله؟ لا أحد يعلم..

لكن هذا ما قيل وليس كل ما قيل قابلاً للتصديق..

ألسنا رجالاً؟

أمسك ربابته كمن يضم محبوبته بعشق وصار يغزل حكاية جديدة يقصها على مريديه..

قال الراوي: كان البطل مغوارًا جسورًا.. كان كريمًا شهمًا وقورًا لا يخاف مواجهة الصعاب يتحدى الخوف ولا يهاب.. كان البطل رجلاً.. كان...

قاطعه مريدوه: كلما أتيناك صرت تقص لنا عن أبطال يوصفون بكل الصفات: الشهامة والشجاعة والصدق والكرم والقوة.. وهذا من المستحيل أن يجتمع في شخص واحد كل تلك الصفات.. ألسنا برجال؟ ليس منا أحد كما تصف..

الراوي: حسنًا.. أنتم تريدون الحقيقة ونحن معشر الرواة نبيع الأوهام والخدع ونغزل من الخيال قصصًا وهمية لأبطال أسطوريين نخدعكم بمعسول الكلام وأنتم تستمتعون بخداعكم.. هكذا منذ قديم الزمن خدعت شهرزاد شهريار أمدًا بعيدًا وكان

مستمتعًا.. لكنكم الآن تتمردون على الخداع.. حسنًا سأقص عليكم قصة تعرفونها.. لكنني سأقص الحقيقة حينما يكون البطل منكم مجرد بشري..

حين أضاء السندباد قنديل سفينته ليحصي من تبقى من أصدقائه لم يجد أحدًا..

أين ذهبوا؟ نسيت يا سندباد أين هم؟

ألم يكن ذلك صديقك الذي كنت تتابعه والغول يأكله حين تركك لنحولك بينما أخذ صديقك لأنه سمين فكان صديقك عشاءه..

ألم تتابع ذلك بملء عينيك وأنت فرح سعيد بأنك نجوت دون حتى تدمع عيناك؟

نسيت يا سندباد؟

أصدقاؤك في مواجهتهم للرخ وهو يعصف بهم.. بينما أنت تتشبث بقدميه ليطير بك بعيدًا عن وادي الحيات.. فمن لم يقتله الرخ من أصدقائك قتلته الحيات..

نسيت يا سندباد مواجهتهم لحيتان ووحوش البحر يقفون

يحمون سفينتك بصدورهم العارية بكل بسالة كي تبقى السفينة وتبقى أنت..

هكذا الحياة.. تعصف الأفيال والخيول بالبيادق كي يبقى الملك آمنًا في مخبئه جبانًا لا يقوى على الخروج لملاقاة الموت تاركًا بيادقه تعصف.. ثم الآن تسال أين أصدقاؤك!

حينما أضاء السندباد قنديل سفينته ليحصي أصدقاءه لم يدرِ أنه يضيء نور ما تبقى من قلبه ليشعر بأصدقائه لأول مرة..

حين وصلت سفينته لأرض الوطن عائدًا حاملاً المجد على كتفيه رافعًا رأسه عاليًا.. هكذا تخيلوا وصوله.. إلا أنهم وجدوه منكس الرأس دامع العينين..

هتف المنادي: اذهبوا للسندباد.. إنه يقف وحيدًا عند البحر.. لقد عاد السندباد حاملاً المجد..

لماذا يقف وحيدًا؟ لقد كانت سفينته محملة بالمئات.. أين ذهبوا؟ لا يهم.. الأهم أنه قد عاد من رحلة الأهوال التي قاتل فيها الغيلان والحيتان والرخ والجن..

عاد معانقًا المجد وذلك الأهم..

حين هرول الناس إليه وجدوه حزينًا منكس الرأس صامتًا.. قالوا: إن الأميرة تنتظرك والمجد يمد يده إليك ليعانقك.. فالمجد لك..

القصر من هذا الطريق.. فلماذا تعود للبحر؟

قال السندباد: سلم المجد كانت درجاته جثث أكثر الناس شجاعة.. فكيف يطأ على جثثهم أكثر الناس جبنًا؟ لقد ضحوا بحياتهم لا لشيء إلا من أجل أن أبقى.. لقد ضحوا بأنفسهم آملين أن تضحيتهم بأنفسهم لهدف أسمى من الحياة.. فهل تستحق حياتي كل تلك الحيوات؟ وهل أستحق أن أخلد وحدي في ذاكرة التاريخ بينما هم يرضخون في بطون الغيلان؟ كلا.. لن يكون المجد إلا لهم..

كلا والله لن أصعد إلى المجد وحدي.. سأعود أبحث عن وطني المفقود بين قلوب ضحت لتكتب لي الوجود..

صعد إلى سفينته وأضاء قنديلها وقرر أنه لن يطفئ ذلك القنديل أبدًا حتى يظل أصدقاؤه ورجاله دومًا في عينيه وقلبه حتى يأخذ بثأرهم من الغيلان والحيتان والرخ التي هرب منها ليتركها تقتل أحباءه..

صمت الراوي هنيهة ثم قال: أحبائي.. دومًا هناك جنود في الظلام وخلف الكواليس لولاهم ما كان هناك أبطال..

أحبائي.. الأبطال ليسوا كاملين.. فهم رجال مثلكم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم.. لكن ما يكملهم هم من يقفون وراء الستار ولا يذكرهم التاريخ.

عابر سبيل

وحيدًا في صحراء قاحلة لا ترحم أحدًا..

عيناه كأس دم.. وجلده يكاد يسقط من جسده من شدة الإعياء..

حرارة الجو تصهر عظامه..

ظمآن هو فلا يوجد ماء في الصحراء إلا من سراب..

بوصلته فقدت الاتزان وإحساسها بأقطاب الأرض..

تائه ضائع يائس مرهق متعب منهك..

وفي ظل ذلك كله نسي لماذا مر من هنا وإلى أين يريد أن يذهب..

وفي ظل ذلك كله لم يصبح مهمًّا لديه أن يعرف لماذا أتى وإلى أين يذهب..

مرآة

استيقظ من نومه وكالعادة وقف أمام المرآة ينظر إلى الواقف في المرآة فينظر إليه..

يمشط شعره فيمشط شعره..

يداعب شاربه فيداعب الواقف بالمرآة شاربه..

فقال لمن يقف بالمرآة: يا لك من شخص غريب تقلدني في كل سكناتي.. فهل لك قلب مثل قلبي ينفرط حزنًا عليها وهي مريضة؟

ذهب إلى المستشفى فوجدها قد ماتت..

عاد إلى بيته نظر إلى المرآة ويا للعجب لم ير أحدًا في المرآة.

خسوف قمر

كان ينتظر ليلة الرابع عشر من كل شهر طيلة القرون الماضية كلها..

ليشعل كل مصابيحه ويرتدي ثوب البهاء..

كي يحصي العشاق:

واحد.. اثنان.. عشرة.. عشرون.. ألف.. خمسة آلاف.. خمسون ألفا....

كم يحب أن يصغي إلى عاشق مغرم يصف وجه معشوقته.. به كان يفرح.. فهو في نظر ذلك الرجل أشبه بكل ما يعرفه عن الحياة وكل ما به من حياة..

كم كان يفرح حين ترسل عاشقة متيمة لحبيبها رسالة عبره..

أنا رسول العشاق وأنيسهم وجليسهم..

لكن في تلك الليلة حين ارتدى ثوب البهاء وأشعل كل

القناديل وخرج إليهم نظر إلى الأرض..

لم يجد عاشقاً يهيم أو معشوقة تتيم..

بحث في الجوار على الشواطئ.. بحث في أسطح المنازل والشرفات.. بحث في الصحاري والوديان والغيطان..

لا يوجد عاشق الآن..

لم يكن يعرف أنه تم اختراع جهاز جديد يدعى الهاتف المحمول.. فهما يتحادثان طيلة الليل عبر ذلك الجهاز..

وحين اقترب أكثر كي يعرف فيما يتحادثان وجدهما يتفقان على الذهاب إلى حفلة المطرب المشهور..

حينها فقط لم يتحمل صدمته.. فلملم ما تبقى من رومانسية في الأرض وقرر عدم الخروج لعمله في ليلة الرابع عشر..

فالأرض لا تستحق أن يرتدي لها ثوب البهاء أو أن يشعل لها مصابيحه..

غريق

الماء يغمره.. يكاد يغرق..

يضرب بيديه في محاولة لتشدقه بالحياة للمياه..

يبتغي النجاة وهو غير قادر على السباحة..

الموت يحيط به من كل جانب ويقترب فاتحاً فمه ليبتلعه..

لكنه ما زال يتشبث بآخر آماله.. يضرب بيده من دون استسلام..

فإذا بسفينة قريبة يراه طاقمها فيلقون إليه بطوق نجاة وينتشلونه..

وعلى الرغم من مرور العديد من السنوات على تلك الحادثة فإنها تطل برأسها دائمًا على ذكرياته..

فهي كانت المرة الوحيدة التي يتذكر فيها أنه كان حيًّا وكان يناضل من أجل الحياة..

حياة الجنون

قامت بتفكيك رأسها وخلعت عقلها ووضعته في صندوق مقتنياتها مع ألبوم صورها وبقايا ذكرياتها كي تنظر إلى الصندوق حينما تشتاق إليها..

وقالت له: أحب أن أحيا معك الجنون..

فأخرج هو مسامير وقام بتثبيت عقله قائلاً لها أحب أن أحيا معك الحياة بكل جوانحي..

كابوتشينو

جلس على المقهى وطلب كابوتشينو..

حين أتاه الكابوتشينو سرح في رغوته المعهودة..

شعر بوجوه عديدة في الرغوة..

يرى الآن أشخاصًا يعرفهم وشريط الذكريات يمر به..

فيتجرع الكابوتشينو كمن يتجرع ذكرياته الأليمة..

وفي كل مرة بعد رشفاته يرى وجهًا آخر..

حتى رآها وتذكر حلم حياته الضائع.. حينها لم يتحمل أن يكمل الكوب فانصرف بعيدًا هاربًا من ذكرياته..

من أنت؟

استيقظ الكاتب الكبير على صوت ساعي البريد يحمل إليه رسالة من أحد المعجبين..

فتح الرسالة لم يجد سوى كلمتين: من أنت؟

استوقفته الرسالة.. لم يعرف كيف يجيب هو من يتعمق في الصفات البشرية وطبائعها ويكتب عنها قصصًا وروايات يخاف من التوغل داخل نفسه ويخاف أن يلقي إجابة لذلك السؤال لا ترضيه..

لذلك مزق الرسالة وعاد إلى مخدعه ليكمل نومه..

التعريف بالكاتب

لماذا تود أن تعرفني؟ أما تكفيك كتاباتي لتعرفني منها؟ حسنًا سأريحك.. لو تقصد التعريف التقليدي فأنا مصطفى محمد سيف الدين.. صيدلي مصري.. من محافظة قنا.. أما إن كنت تريد أن تعرف أكثر فلن تجد إجابة عندي.. أحيانًا أرى نفسي طفلاً مرحًا يملك الدنيا.. وأحيانًا أراني شيخًا عبوسًا ملكته الهموم.. ربما إن نظرت للمرآة رأيتني أو رأيت شخصًا يشبهني فإن كنت تعرفني فأخبرني من أكون لأنني لا أعرف من يكون.

الفهرس

مقدمة الناشر.....

ضوء أسود.....

ما وراء البحر.....

تسامٍ.....

حمائم داجنة.....

مثلث برمودا.....

قصاصات ورق.....

عين الحياة.....

خمس دقائق..... .....

مظلة.....

الحساب.....

تحليق.....

حنين.....

حان الهوى.....

شاي مر.....

طاقة.....

قناع ومرآة.....

احتباس حراري.....

تسونامي.....

ثقب أسود.....

القطار.....

أبيض.....

سيد النزال.....

إعصار.....

باب.....

رحلة البحث عن السعادة.....

الساعة الآن صفر.....

لوحة فوضوية.....

رسالة بحر.....

شبح.....

ذوبان الكلمات.....

كوب شاي.....

نافذة لها قضبان.....

سقوط شهاب.....

شتاء عاصف.....

عقد الياسمين.....

ألسنا رجالاً؟.....

عابر سبيل.....

مرآة.....

بلا صوت.....

كسوف شمس.....

خسوف قمر.....

سيجار.....

أمطار.....

غريق.....

ثقب الأوزون.....

بركان أيسلندا.....

حياة الجنون.....

مضمار الحياة.....

كابوتشينو.....

رصيد.....

صدمة.....

من أنت؟.....

حقيبة وزارية.....

ممحاة.....

آخر العنقود.....

التعريف بالكاتب.....